محمد الواعظ

هَيَج

انتقام من نوع آخر

رواية

الطبعة الأولى

السائرون بأعينهم على دروب النص،

الساعون خلف دلال اللفظ وجلال المعاني،

لهم غاية قصية وراء اقتفائهم آثار الكلمات،

همهم بلوغ نهاية المسير المحفوف بتشابك الفقرات.

العاكفون على تعمير الفلوات البيضاء،

الكادحون في بناء صروح نص محكم البناء،

ترسخها دعائم كتابية سليمة،

تحييها جلسات قراءة سديدة.

المُنَقبون في مواطن عامرة بالكلمات،

الباحثون بين السطور عن طرائد زاخرة بالزلات،

جُل بغيتهم تحليل المضامين البينة،

بأساليب نقدية للفكر المحدود غير هينة.

فإلى أولاء الكامنين خلف التشبيهات المجازية،

لأجلهم كتبت ولهم أهدي هذا العمل.

محمد الواعظ،،

تمهيد

هل لكم أن تُخَمنوا ما هي أول خطوة اعتدت القيام بها بعدما أصحو من النوم في أي فترة كانت؟ بالطبع لا أغادر فراشي من فوري لأتوجه إلى المغسلة كي أبلل وجهي الخامل، وأمسح عنه آثار النوم مكرهة، ثم أفرش أسناني مثل فتاة صغيرة مدللة، بعدها أشرع في قضاء يومي المعتاد.

أو أظل جالسة على فراشي الوثير، أراجع من خلال ذهني برنامجي اليومي أو أي شيء من هذا القبيل.

نعم.. هو ما يفعله معظمنا من المدمنين على استخدام الأجهزة المحمولة كما أتصور، إذ ألتقط هاتفي المستقر على الكومود بجوار سريري، لألقي نظرة فاحصة شاملة، أتفقد بها الرسائل وحساباتي في التواصل الاجتماعي، خاصة برنامج (الانستغرام)، كونه الأكثر نشاطًا وتفعيلاً، إذ يتخطى عدد متابعيَّ الخمسمائة ألف، وهذه هبة استثنائية تمنحني شعورًا بعلو وأهمية المكانة المرموقة التي حظيت بها، لذلك ترونني متباهية ومزهوة بنفسي على الدوام.

بلمسة من إبهامي أضأت شاشة هاتفي (الآيفون) المفضل من بين ثلاثة هواتف أملكها. أتوجه مباشرة إلى صفحتي

بالانستغرام، أعاينها.. غريب!.. منشوري الأخير الذي قيَّمت فيه إحدى الروايات لكاتب شهير لا زال على ما هو عليه، لا أرى فيه أي تفاعل من المتابعين وسواهم، لا بالتعليقات ولا بعلامات الإعجاب. مازالت علامة الأيقونة وخانة التعليقات فارغة من يوم أمس! رغم مرور عشرين ساعة على طرح المنشور، هل من خلل يا ترى؟.. لا أعتقد، وإلا لما توقف النشاط في منشوراتي السابقة.

في اليوم التالي أيضًا لم يبرح الوضع كما هو، لا يظهر أي تفاعل تقريبا، عدا تغيير طفيف استطعت رصده، إذ ثمة رقم وحيد ظهر في خانة الإعجاب، فلم يحصد المنشور الذي أعدت نشره سوى على إعجابي فقط!

كما أنني لاحظت عدد المتابعين قد تناقص بدرجة نسبية بعض الشيء، ثلاثة أو أربعة منهم ألغوا متابعتي. لم آبه بالأمر، فهذه حالة بديهية تطرأ على أي صفحة بالتطبيق، ينسحب بضع منهم، يحل محلهم آخرون، فيما أرصد بين الفينة والأخرى متابعون جدد قد انضموا إلى صفحتي، فمرحبًا بهم.

لكن في نهار اليوم التالي رصدت انسحاب عشرة من المتابعين – إن لم يكن أكثر من هؤلاء – دفعة واحدة كما أتصور، بدأ القلق يساورني في هذه اللحظة، بعد ذلك بفترة

من الوقت انسحب ضعف أولئك، ثم أضعافهم في اليوم التالي، ويومًا بعد يوم مضى العدد يتضاءل بشكل ملحوظ ومريب، حتى انخفض إلى ما دون الألف! ليس هذا فحسب، كما في منشوري السابق، لم ألق أي تفاعل بتاتًا لأي موضوع طرحته في حسابي مؤخرًا. وبعد انقضاء اثنين وعشرين يوما اصطدمت ذهولاً بما رأيته حقًا.

ظللتُ أُحدق في شاشة الهاتف غير مصدقة، عدد المتابعين في حسابي صار.. صفرا! جميعهم قد انسحبوا بلا سبب، بل تمادوا إلى مسح جميع تعليقاتهم وسحب إعجاباتهم في كل منشوراتي بلا استثناء. يا إلهي!.. ليس الوضع طبيعيًا هذه المرة، ثمة بوادر خطب لا تبشر بخير تتسلل إلى حالي، لا أعلم ماذا يحدث لي.. حقًا.. لا أعلم ماذا دهاني!

دنيا سليمان

الفصل الأول

(درويش)

(1)

خطوات قليلة فقط،

حتى يلامس حبر قلبي صفحات روحي.

(زايد المرزوقي)

Zayed_almarzooqi97

- لا تتوتر.. ستثير إعجابهم حتمًا، ثق بنفسك.

نزعتني عبارتها المحفزة من شرودي، فرنوت بأنظاري تجاه وجهها الذي ظلَّ محتفظًا ببهجته المتكلفة رغم ما يحمله من عناء ظلَّ يلازمها منذ فترة طويلة.

بادلتها الابتسامة بدوري وإن كانت مصطنعة. ألمحت مازحة وهي تحكم تسوية ربطة عنقي المخططة التي أرتديها لأول مرة مع بدلة كحلية:

- أجزم أن اللقاء سيمتد لساعات متأخرة، فجمهورك من المعجبين لن يسمح لك بالانصراف مبكرًا.

خاطبتها بدلال وعيناي لا تفارقانها، رغم بالي المثقل بالهم:

- ألا ترين أننا نبالغ قليلاً يا عزيزتي.. إنه مجرد إصداري الأول، يجدر ألا نعلق عليه آمالاً تفوق الحد.. لنكتفِ بالتفاؤل فحسب.

مدَّت أناملها لتزيح خصلات شعري الأمامية إلى طرف جانبي ثم قالت:

- عهدتك شخصًا طموحًا قوي العزم، لا تقلل من شأنك أبدًا مهما واجهت من خذلان.

أومأت برأسي إيجابًا لأوحي لها بالثقة، قرَّبت وجهها نحوي لتلثم وجنتي، عبَّرت باعتزاز:

- أنا فخورة بك، وسأظل عونًا لك دائمًا يا روحي.

وقبل أن أودعها لدى الباب، ألقيت نظرة أخيرة على تأنقي المتواضع. في أي مناسبة كانت اعتدت ارتداء الثوب والشماغ، أما بشأن مناسبة الليلة آثرت أن أبدو بمظهر يماثل الشخصيات الأدبية المرموقة.

صارحتها بينما أرتدي حذائي الجديد:

- تمنيت حضورك معي للحفل، لكن وضعك الصحي لا يسمح.

ربتت على بطنها المنتفخ، تنهدت ثم قالت بجلد:

- لولا الإعياء المفاجئ الذي نزل بي اليوم، لما ترددت في مرافقتك، لكن لا بأس.. لدينا مناسبات أخرى تنتظرنا، لن أفوتها بالتأكيد.

عاينت الساعة.. بلغت للتو السابعة مساءً، أمامي ساعة واحدة على الموعد، والمكان –الواقع في منطقة الجفير بالعاصمة– إن لم تكن الشوارع مزدحمة يمكنني الوصول إليه في غضون نصف ساعة فقط أو أقل حتى.

ودعتها بقبلة على وجنتها، ثم خطوت خارج الشقة، ولم أغفل بالطبع عن وعدي إياها بقص ما حدث وإبهاجها بالأخبار السارة بعد عودتي من الحفل.

***

ركنت سيارتي في أول موقف شاغر لقيته، أتفقد ساعتي.. الثامنة وسبع عشرة دقيقة. أسير بعجل بينما قلبي يدقُّ بانفعال، رغم أنه لا يفصلني عن مبنى المركز سوى خطوات معدودة، كان الشارع في جسر الشيخ حمد الذي يربط مدينة المحرق بالمنامة العاصمة مزدحمًا ومربكًا بسبب حادث مروري وقع فجأة، وهذا ما سبب تأخري.

لدى وصولي إلى المبنى المصمم على الطراز العصري

والتقليدي لقيتُ بعض الأشخاص يقفون حيال المدخل، يتحادثون بهدوء فحسب، امرأة ورجلان، بدت المرأة مألوفة لناظري، فهي عضوة بارزة وابنة مؤسس المركز، فضلاً عن كونها -كما عرفتُ لاحقًا- ناشطة مشهورة في برامج التواصل الاجتماعي، عُرفت باسم (دنيا بوك)، عدد متابعيها يفوق الآلاف. أما الرجلان الآخران، أحدهما يرتدي ثوبًا أبيضا وشماغًا من نفس اللون شاعر كبير في البحرين، فيما الآخر يرتدي بدلة رمادية أجهله شخصيًا، لكن كما يبدو من مظهره المهندم لا أستبعد مكانته المرموقة في الوسط الثقافي بالبلاد.

أثناء مروري بجوارهم لم يلفت ظهوري انتباههم، مما أزعجني تجاهلهم، فعمدت لإلقاء التحية، ليكتفوا بردها بلا مبالغة. عبرتُ المدخل لأجد نفسي في بهو واسع نسبيًا، امتلأ بحضور جيد العدد، أغلبهم من النخبة الأدبية والمثقفة كما يتراءى لي. تنتابني الحيرة والارتباك في هذه اللحظة، بينما أقف أُقلب أنظاري التائهة، لا أعلم ما بوسعي فعله كي أسترعي انتباههم بحضوري، فالجميع منهمك بأجوائهم الخاصة، تنساب إلى أسماعي ثرثرتهم الحيوية، فيما عكف البعض على مطالعة هاتفه الشخصي، وقلة يسيرة تعاين منشورات المركز. ولم تكد تنقضي لحظات حتى وقعت أنظاري على ما كنت أنتظره بصبر استلزم مني زهاء سنتين

حتى تحقق حلمي المنتظر.

قبالة ركن الجهة اليسرى تماثلت لعيني منضدة متوسطة الحجم، مسربلة بقماش أحمر، تراصت فوقها مجموعة مكومة من كتابي المطبوع الذي يُعدُّ بمثابة إصداري الأول منذ بدء مسيرتي الكتابية.

بخطوات متئدة سُقت قدميَّ إلى تلك المنضدة لأقف خلفها، التقطت إحدى النسخ وقلبي يخفق بحماسة، أتمعنُ فيها مليًا وكأني أحمل مولودي الأول، أتحسس ملمس غلافها السميك، أقلبها بين يدي، أمعن النظر في الغلاف الأمامي، يتصدره عنوان بارز مكتوب بخط غامق، يحمل اسم (أحلام العشاق)، فيما يدنوه بخط صغير مصطلح (رواية)، أما الاسم الأدبي البارز تحت الصورة السريالية فهو للمؤلف (أدهم رفعت) الذي لا يحمله أحد سواي، بينما اسمي الحقيقي..

- عفوًا.. حضرة الأستاذ درويش عبدالغفار؟

التفت إلى رجل قصير يرتدي نظارة دقيقة الإطار، أقبل علي من قرب، عرفته.. فهو يعمل سكرتيرًا في المركز، كما أنه مسؤول عن تنظيم المناسبات.

أجبته بارتباك:

- نعم.

نوَّه بعجالة:

- سأعلمهم حالاً بوصولك.

ثم انصرف عن ناظري ليقصد المدخل، راقبته بينما يتحدث مع الأشخاص الواقفين بالخارج، ولم تمض لحظة حتى تشتت انتباهي بعدما شعرت يقينًا بنظرات بعض الحضور مسلطة عليَّ شخصيا، تحمل علائم الشك، ثم تنامت واتسعت دائرة الأعين المحيطة بي، انضمَّ البقية للنظر تجاهي، وكأنهم يتفرجون على ملاك هبط من السماء، مما جعل الموقف الحرج دقات قلبي تتواثب اضطرابًا، حتى أن رجليَّ لم تطاوعاني على الثبات، فلست معتادًا على الظهور تحت الأضواء كما أزعم. عند هذه اللحظة أقبل ناحيتي الأشخاص الذين صادفتهم بالخارج يتبعهم السكرتير على عجل.

أتطلع إليها من غير تركيز، بينما تقترب المدعوة (دنيا) نحوي بروية. بدت بأناقتها المميزة ذات إطلالة جذابة، تمثلت في ما ترتديه من تنورة سوداء طويلة وفضفاضة، تغطيها أيضا سترة رمادية مزررة طويلة الأكمام، كما أنها لفَّت رأسها بحجاب ملون، ويبدو أنها لفتت أنظار بعض الحضور، أو أغلبهم بالأحرى. حاولت أن أتحاشى النظر إليها، مدعيًا عدم الانتباه فحسب، إلا أنها وقفت أمامي مباشرة، لتخاطبني بجمود لا يخلو من عتاب:

- لقد تأخرت.. انتظرناك لفترة مطولة.. ولِم لَم تعلمنا بحضورك؟

أجبت معتذرًا ولم تخلو نبرة صوتي من ارتباك:

- أنا.. آسف.. كان الطريق مزدحمًا بسبب حا..

لم تدعني أتم تبريري، إذ أدارت ظهرها لتشير للحضور بالتوجه للقاعة، ثم أمرت أحد المصورين بالتقاط عدد من الصور لي إلى جانب إصداري الأول. بعدئذٍ توجهتُ إلى قاعة ذات حجم يسع ربما لما يربو على الثمانين شخصًا، تم تصميم صفوف مقاعدها على هيئة مدرج.

بعد أن امتلأت القاعة بالحضور، طلب مني السكرتير الصعود إلى المنصة المُعدَّة. ألقيت نظرة خاطفة على الجمهور، شاغلوا مقاعد الصف الأول –إضافة إلى دنيا– هم غالبًا نخبة من الشخصيات الأدبية المعروفة، أما البقية يُعدّون من المهتمين ليس إلا.

لم أتجاسر على النظر تجاههم مرة أخرى، استرعت انتباهي المدعوة (دنيا) تشير للسكرتير بالقدوم إليها لتهمس له بملاحظة كما أُخمن، استجاب لها فأتاني مباشرة ليسألني قائلاً:

- ألم تكلف أحدًا لتقديمك؟

فاجأني سؤاله، أجبته بتعليل غير مقنع:

- لا.. في الحقيقة، لم يخطر في بالي هذا الأمر.

تخضَّب وجهه المجعد بالحيرة، ثم عاد إلى تلك ليخبرها بما قلت، بينما الحضور يرقب، بان الضيق ممتزجًا بالاستغراب على ملامحها المتبرجة، رغم ذلك أمرته إعلامي بالبدء معتمدًا على نفسي.

أعاين الميكروفون، لم تتشجع عيناي بعد على مواجهة الحضور، قربته من شفتي، تنحنحت بصوت مسموع، رفعت رأسي متحاملاً، أتطلع إليهم بتوتر، وجوههم الرزينة توحي بالترقب، قلبي يخفق بانفعال، أفرجت مبسمي واستهللت قائلاً:

- مـــ.. مساء الخير.. معكم الكاتب درويش عبدالغفار أحمد.. أبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا، من مواليد البحرين، ومن سكنة المحرق، أتممت دراستي الثانوية في التخصص الأدبي..

في غضون ثلاث دقائق أنهيت إلقاء المقدمة التعريفية حول سيرتي الشخصية التي لم أُحضِّرها جيدًا، فلم تبرز بشكل مثالي كما أملت. ثم سألت الحضور إن كانوا يودون أن

أقرأ لهم مقتطفات من كتابي الروائي (أحلام العشاق)، فأومأ البعض برؤوسهم مستحسنين الفكرة، لاحظت الآنسة (دنيا) لم تبدِ أدنى تجاوب. هل هذا بسبب الشكوى التي رفعت عليها قبل أكثر من سنة؟!

تناولت كتابي.. شرعت أتصفحه لأبحث عن مقتطفات مناسبة، وقع نظري على فقرة في أوائل الصفحات، باشرت قراءتها جهرًا بصوت لا ينم سوى عن توتر، مما سبب للساني اختلالاً في نطق بعض العبارات بدقة، ترامت إلى أسماعي همسات تشي بالاستغراب، لا يخلو بعضها من الاستياء، وكأنهم يتفرجون على عرض هزلي، ولما انتهيت رفعت رأسي.. أتطلع في الوجوه الضجرة كما يُخيل إليَّ، سألتهم:

- لا أعلم.. هل تودون أن أواصل وأقرأ عليكم المزيد؟

لم يعلق أحد سوى أن أشارت لي (دنيا) بكفها رفضا واستياءً، فاهتزت معنوياتي واعتراني الإحباط في هذه اللحظة، حاولت رسم ابتسامة على وجهي الخائب وخاطبت الحضور سائلاً:

- هل من تعقيب أو أسئلة تودون طرحها؟

انقضت ثوانٍ، لم يبدر من أحد أي تجاوب، إذ عمَّهم الصمت وكأنهم يودون الانصراف حالاً.

أعربتُ قائلاً ومازلت أبتسم بتكلف:

- أشكركم على تجشمكم عناء الحضور، كما أشكر القائمين على إدارة مركز الإبداع الأدبي على حسن الحفاوة وإقامة هذا اللقاء، لقد تشرفت وسُعدت فعلاً بحضوركم الذي يمثل دعمًا كبيرًا لي في مسيرتي الأدبية.

ثم أردفت:

- والآن تفضلوا إلى المنصة الخارجية لأهديكم نسخًا موقعة من إصداري الأول.

حملت كتابي أثناء تأهب الحضور للانصراف، ولم أكد أترك المنصة وأغادر بدوري حتى استوقفتني الآنسة (دنيا) حين أفصحت قائلة بصوت مسموع وعيناها لم تنفكا عن النظر إليَّ باستعلاء:

- مهلاً.. ثمة ملاحظات أود طرحها عليك.. وأرجو ألا يضايقك ما سأقول.

***

(2)

يقذفونني بأحجارهم الهادمة

من الانتقادات، ولا يعلمون

بأني أجمع تلك الأحجار

لأرصف بها طريقي للكفاح.

(نوف عبدالله)

Noufabdullah93

بعد مغادرتي الحفل في قرابة الساعة العاشرة مساء، ظللت أقود سيارتي المازدا العتيقة بلا وجهة محددة عبر شوارع عشوائية، طريق غير مزدحم أسلكه بهدوء، أمام ناظري شارع ممتد أقطعه بقيادة متراخية، أجهل إلى أين ينتهي بي المطاف، فذهني المبلبل متخم بأحداث الساعة الفائتة، وكأنها تنبئ عن مخاض ذكرى مزعجة ستلازمني طيلة حياتي.

لطالما تمنيته حلمًا متفردًا وشيك المنال، من أجله أمسيتُ أَعدُّ الأيام بلياليها الساهرة، حتى آن موعده اليوم الموثق إعلانه في بعض الصحف بتاريخ 8 نوفمبر 2015م، وليته لم يحل ولم يتسن للحدث المنتظر مطلقا أن يبصر النور.

(لا أرى فيك أية موهبة واضحة، بل لا تملك حتى أبسط مقومات الكتابة الجيدة، حتى تقدم على تأليف هذا الذي تسميه كتابًا)

عبارتها المثبطة للعزم ما انفكت تتردد في أسماعي المجرعة بالانتقادات الهدامة، أعجز عن خرسها وليس بي حيلة، بل – بعدما استوقفتني إشارة مرورية حمراء – سلمت ذهني لاستحضار شرذمة من الآراء الناسفة لجهد دؤوب بذلته بعناء، لم تحرضها سوى تلك المرأة الناقمة (دنيا) التي لا أُكنُّ لها من الآن أية مشاعر ودية.

(فن الرواية له قواعده وشروطه الخاصة كحال سواه من الفنون الأخرى، وأنت لست ملمًا بها كما تُقر بنفسك، ولست مخولاً حتى تسمي نفسك بكاتب روائي، فما الذي حملك على ممارسة هذا المجال الشاق من غير أن تنحو بخطوات تدريجية)

(ما يثير استغرابنا أنك لم تعرض عملك على شخص مختص، كما أن لجنة المركز قد رفضت عملك من الأساس، إلا أنك أصررت على طباعة خربشاتك الفارغة التي لا تحمل من فن الأدب نصيب، بل نراك قد تماديت حين رفعت شكوى لدى مؤسس المركز، متهمًا إيانا بإضاعة نسختك المرسلة إلى اللجنة، علمًا بأنك وافقت على شروط تقديم الأعمال الأدبية

والتي من ضمنها لا يحق لأي مقدم المطالبة باستعادة العمل مع مرفقاته في كل الأحوال سواء قُبل النص أم رُفض)

(يجدر بك تقبل مثل هذه الانتقادات التي لا تستهدف شخصك الكريم، فما زلت شابًا طري العود كما يقولون، تحتاج إلى خبرة طويلة، لن تنالها إلا بالتعلم والممارسة المستمرة، وهذا هو المناخ الصحي لكل من يطمح دخول مجال الكتابة)

كنت عاجزًا.. عاجزًا عن الرد أو إبداء أي تعليق إلى حد مثير للشفقة، لم يكن لي مفر من تقبل تلك الآراء الهمجية، رعشات خفية نزلت على جسدي المتخاذل حين اقتعدت المنصة، حالتي النفسية قابت قوسين أو أدنى على الانهيار، بينما تتهاوى على أسماعي قذائف ألسنتهم الانتقادية. لو كنت ذا لسان سليط، لرددت عليهم قائلاً.. ما شأن صف تلك الكبائن الظاهرة في محاذاتي من بعد مسافة محدودة؟!.. لأقترب منها بسيارتي، أدقق النظر.. ولما أفقت من شرودي أدركت إلى أي مدى قادني الدرب المستقيم، يا إلهي!.. إنني أتجه إلى حدود المملكة العربية السعودية!

***

أزف الوقت على انتصاف الليل، لم أعد إلى مسكني بعد، وإن كنت الآن أخطو على عتبات السلم المهمل قاصدًا الدور

الثاني حيث تتمركز شقتي المتواضعة، أتسمر قبالة الباب الخشبي، أتردد لهنيهة، أغمض عينيَّ، أراجع في مخيلتي الحدث المناقض للحقيقة، إذ يجدر أن أتقن سرده بحماسة مصطنعة من غير أن يزل لساني أو تخونني تعابير وجهي المتجهم، أستجمع رباطة جأشي، أسحب نفسًا عميقًا، ثم أخذت أبذل قصارى ما بوسعي لرسم ابتسامة عفوية على وجهي العبوس، سرعان ما قررت فتح الباب قبل أن يعاودني التردد. ولما فتحته لقيت زوجتي مسترخية على كنبة الصالة، بدت شبه غافية أو بالأحرى قد استفاقت فور دخولي، اعتدلت في جلستها، فيما أقف ناحيتها من غير أن أقترب خطوة، وكأني أشعر بتصلب في رجليَّ.

ابتسمت وهي ترمقني بنظرة مرتابة:

- عزيزي.. لقد تأخرت، كنت قلقة عليك بعض الشيء.

خاطبتها قائلا وأنا أحاول أن أسيطر على ابتسامتي الزائفة:

- لقد أرسلت إليك رسالة نصية بشأن تأخري.. ألم تصلك؟

أومأت برأسها إيجابًا وقالت:

- بلى.. لكني لم أطق صبرًا حتى تعود من اللقاء لأسمع التفاصيل السارة.

ثم أردفت سائلة وعيناها الفضوليتان لا تفارقانني:

- كيف كان الحفل؟

أفرجتُ ثغري لأجيب، إلا أن لساني العاجز فقد الحيلة على النطق، إذ أفَلَت ابتسامتي الواهية، فتولاني الصمت المريب حينها. ندت عن (بثينة) زوجتي شهقة مكبوتة تنم عن مفاجأة غير متوقعة، قامت من مكانها بحذر لتقف حيالي، تخاطبني سائلة بقلق:

- حبيبي!.. ما الأمر؟.. لست على ما يرام كما تبدو.

هذه المرة استنطقت لساني عنوة، فأقصى ما لفظته من تعبير حين قلت:

- أنا.. لقد كانت الحفلة.. لا بأس بها.

ما إن أتممت عبارتي حتى تخطيت زوجتي لألوذ إلى غرفتنا المخصصة للنوم، تاركًا ورائي بابًا موصدًا، تركت جسدي الخائر ينهار على الفراش، أرمق السقف شاخص البصر، بينما مشاهد الحدث الحقيقي عاودت مراودتي بلا انقطاع، وفي غياهب البؤس غصت بعيدًا حتى اكتنفتني الوحشة، ولم تفلح طرقات (بثينة) على الباب وتوسلاتها الواهية على انتشالي.

***

(3)

أقف هنا.. في حدث يتكرر سنويا

أمام نتاج ما بذلته من أشهر مضت..

كنت تائهًا بين الأوراق..

الكلمات المطبوعة.. رائحة الأغلفة..

أزفر ما بقي من جهد.. لأعلن عن راحتي.

(مريم إبراهيم)

metaqtr

«زوارنا الكرام.. يرجى الانتباه، سيقام الآن حفل توقيع كتاب (أحلام العشاق)، للكاتب (أدهم رفعت)، وذلك في ركن المؤلفين C/15»

ما إن سمعت الإعلان حتى تصاعدت وتيرة خفقان قلبي توترًا، فيما باتت نظراتي معلقة على الكتب المرصوصة حيالي على المنضدة.

خاطبتني (بثينة) مشجعة بينما هي تلتقط لي تسجيلاً مرئيًا بواسطة هاتفها:

- حانت اللحظة المنتظرة.. تأهب لاستقبال القراء الآن.

حقيقة الأمر.. مضى أكثر من نصف ساعة على حضوري ولم يقبل أحد لاقتناء إصداري الأول، سوى قلة من الزوار الذين اكتفوا بإلقاء نظرة فضولية ليس إلا، رغم كون النسخ المعروضة مخصصة للإهداء بلا مقابل. أتساءل في خاطري.. أتراني اخترت توقيتا غير مناسب حين خصصت ثالث أيام معرض البحرين الدولي للكتاب لحفل تدشين إصداري الأول؟ بصرف النظر عن منظر الحضور الذي بدا ملفتا حتى الساعة السابعة مساء.

التقطت (بثينة) إحدى النسخ، ثم جلست على المقعد بجواري بعد أن باغتها الإعياء جراء وقوفها الذي لم يستغرق سوى فترة محدودة.

سألتني وهي تعاين الغلاف الأمامي:

- ماذا لو اكتشف أحد القراء اسم المؤلف مختلفًا عن اسمك الحقيقي.. كيف ستبرر له حينها؟

هززت كتفي تعبيرًا عن اللامبالاة وقلت:

- لا مفر أمامي سوى أن أصارحه بعدم صلاحية اسم درويش عبدالغفار لمؤلف روائي، بل إنه يخلو من أي سمة أدبية، تخيلي لو صادفت رواية صادرة تحمل هذا الاسم، هل

ستلفت الانتباه برأيك؟

بدلاً من أن ترد ألمحت سائلة:

- وهل ستفسر له سبب اختيارك اسمَي الشخصيتين الشهيرتين للمؤلفين نبيل فاروق وأحمد خالد توفيق كبديل عن اسمك في روايتك هذه؟(1)

لم تسنح لي الفرصة لإجابتها، إذ استرعى انتباهي قدوم شخصين تجاهي، رجل وامرأته كما يبدو.

حيَّتني المرأة بوجه مبتسم، ثم سألتني باهتمام وقد انشغلت عيناها بمطالعة النسخ المعروضة:

- هل يمكن أن تعطينا نبذة عن روايتك؟

اعتورني الارتباك بعض الشيء، إلا أني استرسلت برصانة بينما أخذت زوجتي تراقب الموقف:

- مجموعة من الشباب يستعرضون تجاربهم وقصصهم في الحب.

ارتسم تعبير اهتمام مصطنع على ملامحها، تناولت إحدى النسخ وعلَّقت مازحة:

- لذلك سميتها أحلام العشاق.

ثم شرعت تتصفح الكتاب بروية من خلال مطالعة عشوائية، وهي تحادث زوجها بصوت خفيض، لم أستوعب كنه محادثتهما سوى أن أفشت ملامح الرجل عن بعض النفور، وكأني سمعته يقول باقتضاب:

- مجرد قصص حب مستهلكة.

عندئذ أعادت المرأة النسخة إلى مكانها وهي تبدي اعتذارها مع تمنيها لي بالتوفيق، وقبل أن تولي منصرفة استوقفتها بإلحاح:

- النسخ هذه مخصصة للإهداء، يسرني أن أمنحك واحدة.

تطلعت إلى رَجلها بنظرة محرجة، وكمجاملة لي أو لعدم رغبتها في إحراجي قالت:

- حسنًا.. سآخذها، لكن أطلب أن تكتب لي إهداء مع توقيعك الشخصي.

شعور غريب خالجني تلك اللحظة وأنا أخطُّ إهدائي الأول في المعرض. وريثما أصيغ عبارة مناسبة حضَّرتها من قبل، شدَّت أسماعنا فجأة جلبة وقعت بالقرب من موقعنا، حانت مني التفاتة لأستطلع الأمر، فرأيت في الناحية المقابلة على بعد جناحين من أجنحة دور النشر المشاركة، ظهور تجمهر ملفت من الحضور عند جناح دار نشر عريقة تتمتع

بشعبية جماهيرية، قد احتلت مساحة واسعة مقارنة ببقية المساحات المخصصة لدور النشر المشاركة، ولا أخفيكم أنها إحدى الجهات التي أملت أن تتبنى طباعة إصداري الأول، إلا أني قوبلت بالرفض من جهتهم.

سمعت المرأة تشير قائلة:

- أوه.. لقد حضر أخيرًا، هيا لنلحق على توقيعه.

أدركت حينئذٍ تهافت هذا الحشد الظاهر لم يكن وراءه سوى شخصية مشهورة في برامج التواصل الاجتماعي، إذ أعلن مؤخرًا عن إصدار كتابه الأول، وها أنا ذا أتفرج على حفل تدشين كتابه بحضور جمهور عريض من المعجبين.

أنهيت كتابة الإهداء مصحوبًا بالتوقيع من غير تكلف، خاصة وأنني استجليت عجالة زائرتي للانضمام إلى فوج الحضور هناك، ولما ناولتها النسخة شكرتني باقتضاب.

عقب انصرافهما خاطبتني (بثينة) باستياء:

- لم تكن مضطرًا لأن تهديها نسخة.

التفت إليها متسائلاً باستغراب:

- وما المشكلة؟!

أجابت:

- لم تبدِ أي اهتمام في اقتناء كتابك، ولولا أنها لم ترغب في إحراجك لما طلبت توقيعك.

اعترضت عليها ولم أخفِ ضيقي:

- وماذا يضير لو منحتها إهداء؟.. في كل الأحوال هذه النسخ تُعطى بلا مقابل.

ثم أردفت:

- كأول تجربة لي، لا بدَّ من تقديم تنازلات.

آثرت الصمت، خاصة لما جسَّت مني بوادر انفعال، ولم تكذب الظن، إذ لم يستلطف مزاجي الأجواء في هذه اللحظة، لاسيما منظر الحشد هناك وما يثيرون من جلبة مبالغة، ناهيك عن حرص بعضهم على اتباع التقليد السائد المتمثل في التقاط صور شخصية مع الكاتب الذي أراهن على عدم براعته في توظيف القلم لصياغة ولو نص واحد سليم. لكم يثير ذاك المنظر المستفز والمناقض لوضعي غيظي الآن، وكأني أود أن أصرخ متوسلاً في أولئك الغافلين، أطالبهم بالقدوم إلى ركني المهجور حالاً، لمنح إصداري الأول فرصة للتعارف، ويتراءى لي ثمة من استجاب لندائي الخفي، إذ أقبلت تجاهي فتاتان جامعيتان كما أخمن لتقفا في مواجهتي.

مدَّت إحداهما يدها لالتقاط نسخة، وراحت مع صاحبتها تقلب الصفحات بعشوائية، تتبعها قراءة مقتطفات بنظرة عجلى، أراقبهما بأنظار متحفزة، ولم تنفك أسماعي عن محاولة استيعاب ما يجري بينهما من حديث هامس، إذ سمعت التي تحمل كتابي تخاطب الأخرى قائلة:

- هذه الرواية التي انتقدتها دنيا في منشورها الأخير كما أخبرتك.

عقَّبت صاحبتها:

- تبدو رواية عادية.. لا أعلم لم قست عليها إلى هذا الحد؟!

- ربما بسبب أسلوب الكاتب الركيك، أو خلو الرواية من أي مضمون كما تدعي.

ما إن سمعت الاسم حتى شعرت بانقباضة في صدري، فلم أستطع أن أكبح تدخلي، إذ قطعت حديثهما بفضول لا يخلو من انفعال، وما انفكت زوجتي تراقب بأنظار قلقة:

- عفوًا.. أنا مؤلف الرواية، هل لي أن أعرف في أي مصدر انتقدت روايتي؟

تبادلت الفتاتان النظرات بارتباك، وقد انعكست على ثغريهما ابتسامة خجل.

خاطبتهما وأنا أحاول تهدئة انفعالي:

- أرجوكما.. لم أقصد التسبب لكما بحرج، فقط تملكني الفضول لمعرفة رأي القراء في إصداري الأول.

أجابت الفتاة بنبرة متحفظة وهي تهم بإعادة النسخة إلى مكانها:

- ستجده في حساب دنيا بوك بالانستغرام.

- دنيا بوك!

صدر مني تعبير ينم عن عدم الفهم. أوضحت قائلة:

- أشهر ناقدة للكتب في الانستغرام، فقط اكتب اسمها دنيا بوك في خانة البحث وسيظهر لك حسابها بسهولة، فلا يوجد سواها.

بالطبع لم أصارحها بعدم امتلاكي لأي حساب في برامج التواصل الاجتماعي التي صرفتُ وقتي وذهني عن ملهياتها كليًا. ثم سألتني الفتاة الأخرى قائلة:

- أهذا أول كتاب ألفته؟

أومأت برأسي إيجابا، قلت وأنا أبتسم بتملق:

- نعم.. إن أحببتما تجربة قراءته، يسرني أن أهديكما نسخة

موقعة لكل واحدة منكما.

ردَّت الأولى بلباقة:

- لا بأس.. لقد حضرنا للتو، لدينا قائمة طويلة من الكتب التي نود اقتناءها، إذا سمح لنا الوقت سنمر عليك مجددًا.

ثم انصرفتا فرارًا كما أتصور، ولم أظفر منهما سوى بدعوة مقتضبة مقرونة بالتوفيق.

التفتُّ بعدئذٍ إلى (بثينة) أطلب منها سائلاً بإلحاح:

- هل يمكنني استخدام هاتفك رجاءً؟

قطَّبت جبينها، ردَّت بضيق:

- أرجوك عزيزي لا تأبه بما سمعت.

- ناوليني هاتفك لحظة، سأتفقد الانستغرام فحسب.

تنهدت بانزعاج وهي تسلمني هاتفها طوعًا. بخلافي أنا فقد أنشأت هي حسابًا في هذا التطبيق مع بداية انتشار موجة التطبيق لدى المستخدمين. بواسطة حسابها قصدتُ خانة البحث مباشرة، وفيها كتبت الاسم التالي (دنيا بوك)، فظهر لناظري فورًا الاسم المستهدف، دخلت صفحة الحساب ولا أضمر في نيتي أي تطفل سوى الاطلاع على المنشور الذي تلقفت أمره من حديث الفتاتين، ولم تكد زيارتي التفقدية

تُزمع حتى وقعت عيناي على الصورة المنشودة، حيث استعرضت كتابي بلقطة فنية احترافية، خفق قلبي توجسًا وهو يكابد هاجسًا مفاجئًا لا مبرر له.

خامرني التردد قبل أن أضغط على الصورة، استغرق الإجراء ثانية حتى تبدى لي النص المرفق الذي لم يمض على نشره سوى بضع ساعات، رغم ذلك نسبة الإعجاب التي حصدها قد فاقت الألف. سبق وأن اطلعت على حسابات مماثلة متخصصة في تقييم الكتب، أما هذا الحساب (دنيا بوك) وهو أشهرهم وأكثرهم متابعة لا أذكر عدد مرات زيارتي له.

كما تقتضي العادة، تستعرض الملخص أولاً، فأشرع بقراءته بتمعن.. لمَ ذكرت كل هذه التفاصيل وكأنها تنوي أن تفسد على القارئ متعة كشف الأحداث و.. ما معنى هذا؟!.. صدمتني عبارتها الأخيرة في الملخص قائلة (إن أردتم معرفة المزيد من هذه الخربشات الفارغة، يمكنكم قراءتها في جلسة مختصرة، وإلا لا أنصحكم بإضاعة وقتكم مع سوالف المراهقين التافهة).

اتسعت حدقتا عينيّ وأنا أستأنف القراءة، تسألني (بثينة) بارتياب.. هل من خطب؟ فأتجاهلها عن غير قصد.

تتأجج نفسي بمشاعر مضطرمة وأنا أتلقى كلماتها القاسية

كصفعات مهينة.. (رأيي باختصار في هذه الرواية السطحية الشبيهة بمسلسلات الهواة الهابطة، أنها لا تستحق تخصيص موضع لها في مكتبتكم سوى إلقائها في أقرب سلة مهملات، فليس لها أي هدف أو مضمون سامٍ سوى احتوائها على كمية انحطاط من تفاهات غزل المراهقين والمراهقات الساذجة، في الوقت الذي نناشد أصحاب المواهب الأدبية الشابة باستغلال مواهبهم في كتابة مواضيع هادفة تنمي أخلاق وعقول النشء، نجد فئة شاذة، أقول وأكرر فئة شاذة لا تتعدى الأصابع تحاول تسميم عقول الجيل بالأفكار الفاسدة البعيدة عن عادات مجتمعاتنا المحافظة. ونصيحتي لمن يحسب نفسه كاتبًا والمدعو بـ (أدهم رفعت) إن كان هذا اسمه، ابحث عن مجال آخر غير الكتابة، فأنت لا تملك حتى أدنى وأبسط مقوماتها الأساسية. تقييمي: صفر).

ظللت أحدق في شاشة الهاتف بذهول، وما برحت (بثينة) ترقبني بارتياب، وإذ بي طفقت أهتاج داخليا، تتردد أنفاسي بانفعال وأنا أتلقى سيلاً من تعليقات المتابعين وآرائهم الهازئة، مرفقة أغلبها برموز الإيموجي الساخرة، أحد التعليقات الحديثة ظهر يقول (قبل قليل مررنا أنا وصديقتي على الكاتب في المعرض، حاول أن يجبرنا على شراء كتابه إلا أننا اعتذرنا منه) وتعليق آخر يقول (منظر الكاتب المزعوم وهو واقف ينتظر بدا مثيرًا للشفقة، قررت شراء كتابه المفيد

لأستعمل أوراقه في تغليف الشطائر).

أحجمت عن مواصلة القراءة قبل أن أمد يدي لأعيد الهاتف إلى (بثينة) من غير أن أطفئ أو أغادر الصفحة. أخذت بدورها تمعن النظر في الشاشة، بينما تسمرت في مكاني، أُسلم ذهني للشرود، أوشك أن أتداعى نفسيًا، تحاصرني الأجواء الرصينة المصحوبة بطقوسها الثقافية، إذ يُحيي أحدها بين فترة وأخرى نداء أنثوي يعلن عن حفل توقيع أو تدشين كتاب جديد، يتهادى إلى مسمعي صوت (بثينة) الساخط، تُعبر عن استنكارها تجاه ذلك المنشور المحبط:

- ماذا تحسب نفسها هذه الجاهلة حتى تنتقد كتابك بهذا الأسلوب الوقح البعيد عن المصداقية.

ثم التفتت نحوي، تحاول جبر خاطري:

- عزيزي.. لا عليك من هذه الانتقادات السخيفة، فأمثال هذه المرأة فشلوا في تحقيق أي إنجاز يذكر في حياتهم المبهرجة.

لم أتجاوب معها إطلاقًا، وإنما ظللت أرمق نقطة فراغ لا وجود لها في الأسفل.

تنهدت بعد هنيهة، ثم سألتني بنبرة تنم عن نفاد صبرها:

- هل نذهب إلى البيت؟

رفعت وجهًا متجهمًا إليها، ملامح وجهها ونظراتها المشفقة تشيان بالأسف، وقبل أن أحسم قراري وإن لم تنته فترتي بعد، شدَّ انتباهي عنوة تردد هتافات ممتزجة بضحكات أنثوية عالية، أثارتها جمهرة الحضور هناك، إذ ازدادوا أكثر من قبل، مما حدا بالجهة المنظمة تكليف بعض مسؤولي الأمن للمراقبة وضبط الوضع. نظراتي حالت شزراء وأنا أسلطها على ذلك المشهد المستفز، يختلج قلبي ليس توترًا، ولا قلقًا هذه المرة، بل ثمة ثورة هياج عارمة هبَّت على مشاعري الباطنية تشحنها لا إراديًا، لم يزدها غليانًا سوى مرور بعض الزوار حيالي، ولم يولني أحد أي اهتمام ولو نظرة عابرة حتى. تجاهلهم يخنقني.. يملؤني غلاً وغيظًا، صدري الموغر أخذ يعلو ويهبط، علامة لا تنبئ إلا بنذير سوء، تسري في داخلي سورة غضب توشك أن تفقد صوابي، حتى غادرت المكان لأنصرف إلى المقصد المكتظ، متجاهلاً زوجتي القلقة تسألني عن وجهتي الآتية، أخطو بأقدام متهورة، قاصدا اختراق الحشد المتجمهر، وما كدت أبلغ غايتي حتى انفلت لساني بحدة يطلب منهم التنحي.. من فضلك.. لو سمحت.. دعوني أمر.. هيا افسحوا لي المجال. تفاجأ البعض إزاء تصرفي الأرعن، لم آبه.. كل ما أردته الوصول إلى إحدى نسخ مشهور الانستغرام هذا ومعشوق

الملايين كما يصفه واقع الحال، ويا لخيبتي.. لقد نفدت النسخ توًا كما قال لي المُسوق، وهم بانتظار شحنة إضافية غدًا. لكن لا بأس.. طلبت من إحدى الواقفات أن تعيرني الكتاب لحظة، لألقي عليها نظرة سريعة فحسب، فناولتني إياه بشيء من التردد.

أعاين غلافه الأنيق، تحمل واجهته الأمامية صورة المؤلف وقد رسم على وجهه ابتسامة واسعة متصنعة و.. ما هذا العنوان الفارغ؟! (بطم مطب)!.. أدركت لاحقًا أنه يمثل افتتاحيته المعتادة في برامج التواصل الاجتماعي. شرعت أتصفحه.. ما هذا الهراء؟!.. الصفحات اليمنى تحمل صورًا استعراضية للمؤلف بأوضاع مختلفة مثل عارض أزياء، أما الصفحات اليسرى من المنتصف تحديدًا، فقط اكتفت بعرض فقرة من سطرين أو ثلاثة عبارة عن كلام سطحي فارغ، على غرار.. (أحببتكِ اليوم حبًا مجنونا ليس له مثيل، حبًا ذاب له القلب ثم استوى من جديد عندما أراكِ أمامي). أيروقهم مثل هذا الكلام الفارغ حقًا!

- لو سمحت.. الكتاب من فضلك، حتى ألحق على التوقيع.

التفت إلى المعجبة التي أعارتني الكتاب عن غير طيب خاطر، أخمن عمرها لم يتجاوز الثامنة عشر، وبدلاً من أعيد إليها غرضها، رفعته أمامي بضم أصبعي الإبهام والسبابة من

طرفه العلوي، وكأني أحمل خرقة ملوثة.

ارتجلتُ معبرًا بصوت مسموع لفت انتباه الأغلبية:

- أهذا تسمونه كتابًا؟!

خفت الضجيج نسبيا بعد الإفصاح عن جراءتي تلك، عيون عديدة استثارتها مفاجأة غير متوقعة انقلبت ناحيتي، مسئولي الأمن بدا عليهم التأهب، إذ تحولت دفة مراقبتهم نحوي أيضا، حتى الكاتب الذي واصل توقيعاته للمعجبين انتابه التشويش لدى شعوره بأمر غير سار يجري قد يفسد حفلته الاستعراضية.

أمسكت الكتاب من دفتيه وفتحته على صفحة عشوائية، لأقرأ بصوتٍ عالٍ:

- انظروا ماذا يقول هذا المهرج.. يقولون.. يولد الحب من أول نظرة، آه.. لو تعلمين كم نظرة أنانية حاولت الوصول إليك ولم تستطع.

صفقتُ الكتاب من دفتيه بقوة، علَّقت ساخرًا:

- لم لا تستشير أخصائي عيون، ربما تعاني من قصور في النظر.. بالله عليكم ما الذي يعجبكم في هذا الهراء؟!

صمت نسبي خيَّم على الأجواء الآن، شعرت بأحد يربت

على كتفي برفق، وإذ بالمسوق في الدار يخاطبني بهدوء:

- من فضلك يا أستاذ.. أنت تفسد حفلتنا، لو لديك أي ملاحظات بإمكانك..

لم أدعه يكمل، إذ تفاجأ بردة فعلي العصبية حين أزحت يده بحدة، مما صدرت تعابير شهقة مصدومة من بعض الحاضرات.

- لا شأن لك لو سمحت.. قم بعملك فحسب، هل تفهم.

خاطبته بغلظة، فردَّ عليَّ بحدة هو الآخر:

- أنا مسؤول الدار هنا.. أطلب منك باحترام أن تدعنا نكمل الحفل وتنصرف حالاً.

علَّقت بتهكم وأنا أقلب أنظاري حول الكتب المعروضة:

- مسؤول الدار إذًا..

بغتة قذفت الكتاب في وجهه وصحت فيه زاجرًا بنزق:

- ليس عليكم أن تنشروا مثل هذه الترهات بهدف الاسترزاق من مهرجي التواصل الاجتماعي.

عند هذه اللحظة انقلبت الأجواء على حين غرة، بعد أن سادت موجة من الهرْج بين الحضور، متبوعة بأصواتهم

المستنكرة المختلطة بالآهات والتعابير المشتتة، خاصة حين خرجت عن طوري، إذ اجترأت أنثر الكتب المعروضة على المنضدة بهمج عشوائي. حاول مسؤول الدار وقد انضم إليه الكاتب مع آخرين إيقافي عند الحد، فاشتبكت معه بضراوة وأنا أرغي وأزبد:

- كفوا عن نشر التفاهات.. سأحرق كتبكم الفاشلة.. سأحرقها كلها.

ثم استبسلت أخبط وأقاوم مسؤولي الأمن الذين لم يتورعوا عن كبح جماحي الأهوج. انفلت شماغي، انفكت أزرار ثوبي العلوية، فيما تمزق جيبي الأمامي، احتشد جموع من الناس بأعداد كبيرة للتفرج، وبين الهرج والمرج وهيمنة حالة من الضجيج الفزع، تناهى صوت زوجتي على مقربة منا تتوسل صائحة:

- كفى.. كفى.. إنكم تؤذونه.. لم يقترف خطأ يستحق..

وما انقضت لحظة على توسلها أو محاولتها لإنجادي، حتى سمعت –بل سمعه الأغلب– صرختها المريرة الناجمة عن خطب جلل.

حينها صحت صارخًا وأنا أستميت في محاولة فك الأيادي المحكمة بي:

- دعوني.. إنها زوجتي.. دعوني يا أغبياااء.

تراخت أياديهم بعدما انتبهوا بدورهم فزعين لخطب مؤسف وقع من غير حسبان، دفعت الأجساد المعترضة جانبًا، لأهرع إلى زوجتي المطروحة على الأرض، تتلوى في حالة يرثى لها فعلاً، إذ تلقت ضربة عن غير قصد من أحد المشتبكين أثناء محاولتها الخرقاء إنجادي.

بعين مفزوعة أحملق فيها بأعصاب لا تصمد، مهيأة للانهيار في لحظة دانية، أراها ويدها الواهنة مرخية على بطنها الذي بان وكأنه ينتفض، انبعث صوتها المتأوه الممتزج بأنفاسها المتقطعة، يستغيث مثل طائر جريح:

- خذني إلى المستشفى.. خذني حالاً.

***

(4)

أحيانًا تحتاج صفعة واحدة

من الحياة لتستيقظ.

(لطيفة الغيثي)

يا رباه.. أرجو ألا تكون الطرق مزدحمة أثناء قيادتي العجلة. لا.. مستحيل.. لن أعبأ به، فلأتجاهله بتاتًا، حدسي ينبئني بثمة متاعب عصية سألقاها لاحقًا.

أحجم عن التفكير، لأوجه تركيزي نحو هدف واحد لا سواه.. المستشفى. أواصل القيادة بتهور، أتخطى إشارة حمراء، لم أستطع الإفلات من الرادار الذي اقتنصني فورًا بوميضه الساطع، بعدها لاحقتني أبواق السيارات معترضة، بدوري أضرب بوق سيارتي الشبيه بحشرجة آلة نفخ ملاعب مستهلكة، فيما أصيح هادرًا في السواق الآخرين أمامي بالتنحي عن طريقي، ولما علقت في الزحام انتهزت الفرصة لألقي نظرة مذعورة على زوجتي المضطجعة في الخلف، حالتها الحرجة ظلت موضع نزاع بين الوعي والغشيان، أما شفتاها المرتعشتان فلم تكفا عن التأوه بوهن. أزفر بهياج،

أعيد بصري للنظر إلى الطريق، ها.. ثمة فسحة، أضغط على الفرامل، أندفع بقوة، أزيد معدل سرعتي، أتخطى بضع سيارات، أقطع إشارة ضوئية قد تحولت حمراء في ظرف ثلاث ثوانٍ، وكأني أُجسد حرفيًا مشهد مجرم يفر من مطاردة سيارات الشرطة وراءه، إلى أن وصلت إلى مبنى الطوارئ بمستشفى السلمانية، أوقفت سيارتي قبالة البوابة الأوتوماتيكية، وإلى بهو الطوارئ هرعت مندفعًا لأستغيث صائحا بصوت ملهوث لفت انتباه المارة والحضور:

- أحتاج مساااعدة.. زوجتي في السيارة.. أرجووووكم.

أما ما حصل بعدئذ لا أذكر تحديدًا، ذهني مثقل بالتشويش، المعالم حولي من شتات الناس، ونفر من الممرضين والأطباء، ناهيك عن المرضى والمراجعين، ثم وجوه عمال مندهشين، تتداخل مع أجساد موظفي الأمن، تلحقهم كذلك صفوف مقاعد متصلة انقلعت عشوائيا. كلها تتشابك لتشكل هلاوس عابثة تدور حولي بشكل فوضوي، دوار يتبعه دوار.. رجلاي المرتعشتان بدت كلتاهما تفقدان قواها بسرعة متتابعة، جسدي برمته راح ينهار عاجزًا، وقبل أن أتهاوى على الأرض كجثة شيخ طاعن في السن، تلقفتني الأيادي البيضاء المجهدة، لتسندني على أقرب مقعد، تنساب أصواتهم المشوشة إلى أسماعي، فلا أكاد أعيها، تنفلت نظراتي لتخترق

ستار المشهد الفوضوي بعد أن استكانت معالمها شيئًا فشيئًا، وفي طرف عين استقرت رؤيتي على نقالة طبية ذات عجلات متحركة، تحمل زوجتي الراقدة، يجرها –لا أذكر كم– ممرضون أو ممرضات –لا يهمني جنسهم– على جناح السرعة، مروا بها أمام عينيّ المنهكتين مثل شهاب سائر ومض فأفل، ولا أدري إلى أين نقلوها.

***

- مبروك جاك ولد.

بعد فترة من الوقت قضيتها في غرفة الانتظار، أقبلت إحدى الممرضات لتبلغني البشرى السارة التي أذابت كل مخاوفي وتوتري، فآن لي أخيرًا أن أتنفس الصعداء.

دخلت على زوجتي التي مازالت هاجعة في غرفة العمليات، رغم إعيائها الشديد قابلتني بابتسامة شاقة. مسحتُ على رأسها برفق، قبلت جبينها بحب خالص مشفوع بالتقدير.

ولما اطمأننت عليها التفت إلى سرير المولود بجوارها، وكلي حماسة وشوق لرؤية مولودي الأول. أتأمله متدثرًا في قماطه، لا يكاد يستبين منه شيء سوى شعيرات رأسه الضئيلة بحجم الكف، أمدُّ يدي بحذر، أزيح الطرف العلوي

لأكشف وجهه الملائكي، ولم أكد أمسه حتى شهقت رعبًا واستبدت بي الصدمة، إذ ما أراه أمامي بوضوح ليس سوى كتابي (أحلام العشاق)، سرعان ما أخذ غلافه يهترئ ويتفسخ، بينما أوراقه تبلى وتتساقط. التفتُّ إلى زوجتي التي لم تكن هي نفسها إطلاقًا، إذ حلَّت مكانها.. من!.. دنيا!

تتطلع إليَّ بنظرة متشفية، تبتسم بخبث، وإذ بضحكة شيطانية زاعقة تتردد من فمها، بينما تعبث أصابعها ذات أظفار مسنونة في الهاتف بسرعة محمومة، فتدفقت من شاشته علامات الإعجاب بكمية هائلة لا حصر لها.

- الأخ درويش..

فتحت عيني بتثاقل، لأواجه أمامي الطبيبة المختصة بأمراض النساء والولادة، استلزمت مني لحظات حتى استوعبت واقعي الحالي ومكوثي ساعات في غرفة الانتظار. عدلت وضعية جلوسي على المقعد، تطلعتُ إلى الطبيبة التي اجتازت المدخل قليلاً، أفصحت بنباهة وروية لتصعقني بالخبر المؤسف:

- زوجتك بخير.. لكن يؤسفني إخبارك أنها فقدت الجنين، نظرًا لتعرضها لنزيف حاد.. لو أبكرتم في الحضور لاستطعنا إيقاف النزيف وإنقاذ الجنين حتمًا.

ثم أردفت قبل أن تولي منصرفة:

- نضطر لإبقائها في المستشفى بضعة أيام، حتى تنال راحة كافية مع ضرورة متابعة وضعها الصحي.

سمحوا لي بالدخول عليها ورؤيتها، لكن نفسي المنهارة أبت التوجه بي إلى امرأتي المنكوبة، مع ذلك لم ألبث هنيهة حتى جرَّتني أقدامي إلى غرفتها الخاصة، حيث تم نقلها هناك بعد العملية.

عند المدخل أقف متسمرًا، أبث النظر إلى جسدها الممدد المتشبث بالحياة رغم قواها المفقودة، أخطو نحوها بروية، برز لناظري صدرها يعلو ويهبط بتثاقل، يظهر أيضًا أنبوب محلول مغذي اتصل بوريدها، ولما التقت عيناها بي أطبقت جفنيها، وأعرضت بوجهها الشاحب عني إلى الجانب الآخر. دنوت منها، خاطبتها بصوت مغتم:

- بثينة..

أطرقتُ صامتا للحظة، ثم أردفت بخنوع:

- أنا آسف.

مضت لحظة صمت، قطعتها (بثينة) قائلة فيما دمعة انحدرت من عينيها المغمضتين:

- لا أريد أن أراك.. انصرف حالاً.

- أنا آسف يا بثينة على خسارتك.. بل خسارتنا نحن الاثنين، ليعوضنا الله عما قريب.

ندَّت منها ضحكة مكبوتة رغم نشيجها، صارحتني بغلظة:

- تعتذر على خسارتنا!.. وأنت من تسببت بها.

اتسعت عيناي ذهولاً، واحتبس الكلام في جوفي، فلم أنبس ببنت شفة.

إمعانًا في تأنيبي واصلت البوح عن الحقيقة المُرة بعدما أيقنت موقفي العاجز:

- نعم.. لقد تلقيت الضربة منك أنت.. قاتل.. أنت قاتل.

احتدَّت في اتهامي رغم صوتها الباكي المبحوح ثم أطنبت بنبرة مخنوقة:

- سنوات احتملت فيها عصبيتك اللامبررة، مثل ما احتملت تصرفاتك الهوجاء التي سببت لي الحرج من قبل، رغم وقوفي إلى جانبك دومًا حتى لو أخطأت. فعلت كل ما بوسعي لإرضائك وتشجيعك على استغلال موهبتك الكتابية، وإن انشغلت عني عادة، فلم أتلق منك حسن جزاء إلا.. إلا.. لا أستطيع أن أقول المزيد.. لن أستمر في العيش معك.

أحاول تهدئتها بلا جدوى:

- بثينة.. حبيبتي.. فكري في ما تقولينه بعقلانية، فقط لو تمنحيني الفرصة لإصلاح..

- كفى.. انصرف قلت لك.

- عزيزتي.. أرجوك، هوني على نفسك، وضعك الصحي لا يسمح بـ..

- انصرف قبل أن يحضر أهلي، تدرك كيف ستكون ردة فعلهم تجاهك لو رأوك معي الآن.

أرخيت كفي على كتفها، إلا أنها دفعت يدي مغضبة، فأزمعت حينها ألا أطيل المكوث. ألقيت إليها نظرة أخيرة مشفوعة بالتوسل، فلم تأبه، بل رفعت لحافها لتغطي وجهها، بعدها واصلت بثَّ نحيبها المكروب. دخلت إحدى الممرضات لتعاين المحلول المغذي، فغادرتُ الغرفة والمستشفى برمته، يغشيني البؤس والخيبات المتراكمة، وحين دلفت إلى سيارتي المركونة، لبثت فيها لفترة أساير وضعي المؤسف، هوى رأسي على المقود، ولم أستطع بالطبع حبس دموعي عن الإفلات، لكن بعد انصرام بضع من الوقت تولَّدت في نفسي مشاعر مختلفة، طافحة بمزيج من الكآبة والسواد، فنجمت عنها أطنان من الضغينة والعداء تجاه أحدهم،

أحمله المسؤولية عن كل ما حدث، آنئذ نمت في قلبي رغبة مستعرة لم يُخمد أوارها، تدعو إلى الانتقام.

***

(5)

لأول مرة منذ سنوات.. أهجر قلمي باختياري

أشعر أنني إن بدأت الكتابة فلن أتوقف،

ثمة نزف لا تليق به الأوراق،

ثمة جرح غائر لن تداويه الكلمات،

سبق لها أن حاولت مرارًا وازداد الجرح اتساعًا..

حبسة كاتب اختيارية، هذا ما أمر به منذ أشهر.

(حنان الخطابي)

Nonaalk123

الاستيقاظ في فترة الظهيرة عادة غير محببة، أمقتها إلى حد السخط على نفسي، فما إن أصحو حتى يغمرني إحساس منفر بالخمول والسأم، يلازمني معظم اليوم، لكن ما عساي أن أفعل، فقد جافاني النوم ونازعتني التقلبات ليلة أمس أسوة بالليالي السالفة، فلم أهنأ إلا بغفوات غير مجدية داعبت أجفاني بين حين وآخر.

فتحت عيني على مضض، التقطت هاتفي الملقى بجانب وسادتي، أضأت الشاشة.. كما توقعت، لقد تجاوزت الساعة

الثانية ظهرًا من يوم..؟ حتى تاريخ اليوم أهملته ذاكرتي المبلبلة، عاودت معاينة الهاتف، زفرت بضيق لدى رؤيتي لتاريخ اليوم الذي يصادف السبت الرابع من الشهر الأخير لعام 2015م. لقد انتهت إجازتي التي استقطعتها على مدار أسبوع كامل، وغدا سأزاول عملي المنتظم على نوبات في الشركة.

أرفع جسدي قليلا لأتكئ على الحائط جريا للعادة إن لم تنلني العجلة، ولفترة من الوقت لبثت أسرح بتفكيري المعكر في أمور شتى منوطة بالأحداث الماضية في الأسابيع الفائتة، إذ لخيبتي لم تمر على خير، كما لا أود استحضارها البتة وإن تعششت في ذاكرتي، لكن ما لم أستطع تقبله وحتى استحالة تصديقه هو انقطاع الرابط المقدس الموثوق بإحكام بيني وبين زوجتي، فتحت وطأة الضغوط والإصرار –خاصة من أهلها النقماء– أنهينا إجراءات الطلاق في المحكمة بتوثيق رسمي، عدا هذا مثولي في المخفر للتحقيق في واقعة سلوكي الأرعن في المعرض، ولولا تنازل صاحب الدار عن الشكوى والتوصل إلى صلح لما كنت بمنأى عن المساءلة، تتبعها سلسلة من الإجراءات الجزائية المتبعة وفق بند التخريب. أما الآن لا مناص أمامي من خوض معترك حياة جديدة تتمثل في العزوبية أو الأحرى تسميتها بالعزلة كما كنت أميل إليها بسجيتي الانطوائية كسابق عهدي.

وماذا عن أهلي؟ أليس لي منهم سند يعينني أو ألجأ إليهم في الملمات؟ إجابتي النافية تحملني للإفشاء عن بعض أسرار وضعي الاجتماعي، فأنا منذ أن أبصرت الدنيا نشأت تحت المسمى المكروه (لقيط)، تكفلتني منذ سن الطفولة دار رعاية خاصة مدعومة من الجهات الحكومية، إلى أن بلغت سنًا يمنحني حق الاستقلال، فضلاً عن القدرة على تولي المسؤولية بنفسي، واعفوني من ذكر التفاصيل التي لا أحبذ التطرق إليها بتاتا ولو تلميحًا. بيد أنه يجدر بي الإقرار بشأن التغييرات المستجدة التي تخللت حاضري وعاداتي اليومية، فإلى جانب عكوفي على القراءة والكتابة في أوقات الفراغ، والتي لم ولن أتخلى عنها –وإن فارقت مجتمع النشر والمؤلفين بشكل قاطع– انتويت أخيرًا بعد خلاصي من قيود التردد ولوج العالم الافتراضي من أقرب أبوابه تمهيدًا ورحابة، ليس لغاية سوى مسايرة حالة عامة الناس الإدمانية، وحرزًا من الوقوع تحت قبضة فراغ وحدة طاغية تجرعني بأسوأ الذكريات.

بعدما أديت فريضة الظهر ثم العصر أديته في المسجد، توجهت إلى مطعم قريب، اتخذت فيه زاوية خاصة للانفراد بنفسي، وأثناء انتظاري وجبة الغداء فتحت بيانات هاتفي، إذ اشتركت في أحد عروض خدمات الإنترنت قبل يومين.

حسنًا.. من أين أبدأ؟.. بل كيف أستهل مشواري المتشعب في فضاء العالم الافتراضي؟ أجل، هو ما خطر في ذهني مسبقًا.. الاستغرام.. أقصد، عفوًا الانستغرام، لكن كيف أنشئ حسابًا خاصًا باسمي؟.. وبعد محاولتين استلزم مني بعض الوقت، أنشأت أخيرًا حسابي الخاص مقتصرًا على اسمي الأول (درويش) من غير أن أدرج صورة أو حتى بيانات تعريفية في الملف الشخصي. بعدئذ انطلقت أجوب نطاقه الشاسع اللامحدود، حيث فاضت مساحته الخصبة بصور ومنشورات عشوائية لا حصر لها ولا حد.

عبر صفحات عشوائية مضيت أجول وأتطفل تارة، في حين ألبث وأتلبث لدى صفحات انتقائية تارة أخرى. أضيف إلى قائمة متابعاتي أي حساب يلامس اهتمامي ويثير إعجابي من أول نظرة، أضيف حسابات مختصة بتقييم كتب، ومؤلفين، أدباء، وسواها من حسابات مختصة بالسينما والأفلام، ناهيكم عن صفحات تستعرض أخبار المشاهير، ولا أغفل بالطبع عن متابعة حسابات السفر والسياحة رغم سفراتي القليلة التي لا تتعدى منطقة الخليج، فلم أتروى لحظة ولم أفكر بوجاهة في ما أفعله الآن، ما فتئت أتنقل بين الصور والمنشورات العشوائية الهائلة في صفحة الاستكشاف من غير أن أتناول وجبة غدائي المؤلف من الرز ومرق اللحم سوى لقمات قليلة، حتى اصطدمت عيناي ذهولاً باسم

حساب أوغر عليه صدري وأذكى أنفاس هيجاني لحظتها، رغم أنني في الآونة الأخيرة لاسيما بعد إخلاء سبيلي في المخفر كظمت غيظي، ولم أتوانى عن محاولة تناسي أمر تلك الناقدة الفظة المدعوة (دنيا) ومنشورها المسيء لي شخصيا ولكتابي الأول الذي مثل لي حلمًا متفردًا ليته ما تحقق.

استجابة لرغبتي المتأججة دخلت صفحتها ونفسي تجيش توترًا.. يبدو جليًا عدد متابعيها قد زاد بكثرة عن المرة الماضية، أرى منشورين حديثين يليان تقييم كتابي، اطلعتُ عليهما بنظرة غير مطولة، بان تقييمها إيجابيا للكتابين، كما أطرت عليهما بسخاء، أمر متوقع طالما أنهما يحملان اسم كاتب مشهور معروف بين الأوساط الأدبية خاصة. لم آبه صراحة، فمقصدي تفقد منشور كتابي من جديد، فلعلها قامت بتخفيف حدة انتقادها اللاذع، ليبدو نقدها منصفا وبنَّاء بعدما وخزها تأنيب ضمير كما أتعشم.

أعاود معاينة المنشور وقراءته وكأني أطَّلِع عليه لأول مرة. لا يظهر عليه أدنى تغيير كما توهمت، مضى غيظي يستثير ويفور، فيما تتردد أنفاسي شزرًا وغلاً، وبدلاً من أن أغادر الصفحة تحولت أطالع التعليقات التي انهالت أكثر من ذي قبل كما هو متوقع، مثل سابقها توالت تعليقات هازئة

وساخرة، أعداد هائلة من رموز الإيموجي الضاحكة ملأت المساحة المفتوحة، وكأنهم يباركون صنيعها الناسف، إلا قلة يسيرة من الآراء لا تتعدى الأصابع تطالب صاحبة المنشور بالتهدئة، وعدم تهويل أمر كتابي إلى هذا الحد، طالما أنه لا يستحق. ثمة تعليقات لا علاقة لها بالمنشور، مجرد عروض إعلانات دعائية ترويجية لمنتجات خاصة، ومنهم من يقترح على المتابعين والزوار زيارة صفحته بأسلوب مغرٍ، و.. آخر التعليقات التي ظهرت قبل حوالي ساعة، تفصح عبارتها المنمقة عن التالي.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، معكم الشيخ الروحاني فضيل يعقوب دولا، نقدم لكم خدماتنا العلاجية المضمونة مائة بالمائة.. فك السحر، علاج المس والوسواس القهري، جلب الحبيب، رد المطلقة، زواج العانس، علاج العقم، للتواصل...

استولى عليَّ فضول جارف ليغريني بدخول الصفحة متناسيا التعليقات السابقة. ظهرت واجهة حساب الشيخ المزعوم بعد ثوانٍ من دخولي.. أعوذ بالله، ما هذا؟! تمائم وخرز منقوشة، وطلاسم غريبة، شيخ هذا أم دجال؟ هراء.. فلأفر من صفحة هذا المشعوذ النصاب قبل أن أتورط في متاعب غير متوقعة.

غادرت التطبيق برمته، ثم أغلقت الهاتف من بعده. عدتُ

لتناول وجبتي بعدما بردت بشهية مفقودة، وبينما أزدرد آخر اللقمات استحوذت على ذهني فكرة مجنونة لا تخلو من نزق، ظلت تدور في رأسي، تستدرجني نحو كمائن مجهولة، تنفيذها يتطلب الكثير من الجرأة، المخاطرة فيها قد تنطوي على خطورة غير محسوبة، تفضي إلى عواقب غير محمودة.

***

(6)

لطالما كنا نحذركم وأنتم صغار

ألا تجالسوا الغرباء بتاتا،

ولا تقتربوا منهم مهما كانت نواياهم.

من رواية (غريب يسكن معي)

(محمد الواعظ)

Mohammed_alwaadh

- السلام عليكم..

لم ألبث سوى زهاء ثلاث دقائق من الانتظار حتى سمعت النغمة السلسة للرسالة الواردة من محادثات تطبيق الواتس أب. توجست بعض الشيء وأنا أعاين نص المحادثة، إذ أطنب الطرف الآخر في الرد على تحيتي المقتضبة.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

تريثت لحظة، ثم نقرت على لوحة الحروف الالكترونية لأشكل صيغة تعريفية متعلقة بي.

- معك درويش عبدالغفار من البحرين.

ردَّ عليَّ بعدها بأسلوب لم أعهده من قبل:

- حيا الله المكرم ابن البحرين الطيبة شيخ الدراويش ومن أهل الشاويش، أيا ألف مراحب، حللت سهلاً على خير المراكب.

اندهشت حقًا من أسلوبه الجزل الذي ينم عن كلافة، اتضح لي أنه ليس ساحرًا في الشعوذة والاحتيال فحسب، بل ساحر في الفصاحة والبيان أيضا.

بعد ذلك جرت المحادثة كما هي:

- رأيت إعلانك في الانستغرام، أود أن أطلب إحدى خدماتك إن أمكن.

- طبعًا طبعًا، ما تأمرونه لنحملنَّه سراعًا على عاتقنا قيد المسؤولية، فنتعجل في تنفيذه، ونذير للتقاعس ظهورنا.

- أقدر لك هذا الحماس البالغ، لكن لأصارحك.. أنا أول مرة أتعامل مع شيخ مثلك، فأرجو ألا يضايقك أني متردد وحذر بعض الشيء.

- هاهاها.. لا تثريب عليك أخي الكريم، فقد كثر المحتالون والنصابون في هذا الزمان، ولا حيلة للخلاص منهم ومن شرورهم، لكن تفضلاً منك ولي الشرف لو تهبني كامل ثقتك،

وبإذن المولى الجبار أمنحك ضمانا لا يُدحض، فلا تتردد أخي.

- طيب.. بدأت أطمئن، لكن مازلت أتساءل بشأن ادعائك لحل المشكلات التي ذكرتها في إعلانك، فلو طلبت منك مثلا استعادة زوجتي التي هجرتني، فهل بمقدورك؟

- بإذن الله وتوفيقه، وما علينا سوى واجب الإخلاص والعمل باجتهاد.

- إذًا.. ما المطلوب الآن؟ وكيف نباشر العمل؟

- لصالحك يرجح الأمر والنفع، أرى خيرًا لنا أن نرتب أولاً جلسة لقاء ود كما نتفق، فلو أحظى بشرف زيارتك لي في الطائف، فبها حتمًا أرضى وأسعد، ولأشهدنَّ أنها ساعة مباركة.

- أوف.. المكان بعيد يا شيخ، يتعذر عليَّ الذهاب إلى هناك.

- طيب.. في هذه الحالة أطلب منك تحويل مبلغ مائة ألف ريال مع عشر سبائك ذهبية، وأرجو ألا ينقص منها ولو مثقال ذرة.

- ؟!!

- أمزح معك أخي، لا تشغل بالاً، سأزور البحرين بعد أسبوع،

لي أخت تعمل عندكم، سأمكث عندها كم يوم، ثم يمكننا التواصل في ما بعد متى ما أبلغتك بقدومي، وأرجو المولى أن أنال فعلا شرف لقائك هذه المرة.

***

مرَّت تسعة أيام على محادثتي مع الشيخ الروحاني كما يزعم، وحين أعلمني بوصوله إلى البحرين تم تدبير موعد للقاء به كما هو متفق.

قبل الغروب بساعة كنت أمشي متوغلاً داخل أحد الأزقة الضيقة بفريج الفاضل بالعاصمة والمحاذي لسوق المنامة، حتى انتهيت إلى بناية قديمة ذات جدران متآكلة اللون بفعل تأثير الزمن، مؤلفة من طوابق محدودة. عبرت المدخل المُشرع لأرتقي العتبات الإسفلتية، قبل أن أتجاوز الطابق الأول صادفت امرأة أثيوبية كما تبدو، ترتدي زيًا رسميا مخصصًا للعمل في خدمة الزبائن أو النزلاء بفندق أو مقهى مثلاً أو أي جهة ذات صلة.

نظرت إليَّ بارتياب بينما هي تخطو نزولاً، لم أولِّ لها التفاتة وإنما واصلت صعودي حتى توقفت أمام باب شقة تتوسط الأدوار، أخذت أدقق النظر في العنوان، إمعانا في التأكد التفتُّ إلى الشقة المقابلة، حيث ينبعث منها ثمة صوت مذياع أو تلفاز نشط، قرعت الجرس ذي الرنين المتتابع،

انتظرت لحظات حتى سمعت صوتًا يتنحنح خلف الباب، تلاه صوت إدارة المفتاح في شق الكالون، انفرج الباب بهدوء، فبرز حيالي رجل أفريقي ضخم الجثة بعض الشيء، له لحية كثة مشعثة تحت الذقن، يرتدي جلبابًا فضفاضًا كريمي اللون، فيما يعتمر طاقية مزركشة عريضة الحجم.

بصوت غليظ بادرني محييا:

- يا مرحبا يا مرحبا بالشيخ درويش، قد حلَّت علينا البركة بقدومك.

ثم مدَّ ذراعيه ليضمني برحابة مبالغة، كأنه يحسبني صديق عمر افتقده منذ أزمان. بعد ذلك دعاني للدخول مفسحا لي المجال:

- تفضل تفضل.. بيتنا الواسع يرحب بالضيوف الأعزاء أمثالك مهما طال مقامك.

ما كدت أطأ الصالة حتى استقبلت أنفي رائحة بخور غريبة نفاذة، لم أستحبها مطلقًا، تشبه رائحة شياط جلد قديم.

أشار لي بالجلوس على إحدى الأريكتين المتقابلتين، فأذعنت له بنفس حذرة متأهبة. أما هو فقد ظل واقفًا بجانب الأريكة الأخرى.

سألني بلطف بالغ:

- قبل أن نبيح لألسنتنا الحديث، قل لي.. ماذا تشرب؟

أشرت له معتذرًا:

- شكرًا جزيلا يا شيخ دولا، لا تكلف على نفسك، فلن أطيل البقاء أرجوك.. أود أن أفاتحك بالموضوع على عجالة، ثم أنصرف بعدها لشؤوني الخاصة.

اعترض بإلحاح:

- ضيف أصيل بمقامك لا نكرم وفادته!.. عار علينا وبئسًا لتقصيرنا، لأجلبن لك شرابًا طيبا تستسيغه.

لم أجد مفرًا من الإذعان لإلحاحه، فاكتفيت قائلا:

- لا بأس.. سأكتفي بشرب كأس ماء فحسب.

عقَّب باستغراب:

- ماء فقط!.. حسنًا ما رأيك بمشروب منعش منقوع بجلد الثعابين، أو قهوة مرة مستخلصة من بن الخنافس.

- ممـ.. ماذا؟!

انعقد لساني جراء ما اعتراني من استغراب واشمئزاز لم أستطع مداراته. هذا الخبيث ماذا يضمر لي من نية سوء؟

وكأنه فطن لموقفي المرتبك، قهقه ببلاهة:

- هاهاها.. أمزح معك يا أخي، حتى لو بلغت من السفاهة حدًا غير معقول لما نويت تقديم ذلك الشراب المشين لمن اتخذته عدوًا حتى، ولا أرجو أبدًا.

ثم أردف بنبرة مستاءة:

- وا أسفي على سمعتنا المشوهة نحن الشيوخ الروحانيين، رغم جلال الخدمات المقدمة لتعساء الحال، فقد لفق بنا العوام الأكاذيب والأقاويل الباطلة جزافًا، باعتبارنا أوبئة شيطانية وجب العياذ منها. آهٍ وكفى.. سأجلب لك الماء نزولاً عند رغبتك.

عاد بعد قليل يحمل صينية صغيرة عليها قنينتي ماء بارد مع قبضة مشكلة من المكسرات داخل طاسة نحاسية، وضعها على المنضدة الخشبية التي تتوسط الأريكتين، ثم جلس على الأريكة المقابلة، وبالطبع لم أجرؤ على مس أي من لوازم الضيافة أمامي، فلا أدري ما تخفيه من مضرة.

رمقني بنظرة متفرسة دون أن يرمش، ثم ابتسم بسماجة وصارحني قائلاً:

- مد يدك يا أخي، ولا تجعل الوسواس الخناس يعبث بعقلك، لا.. لم أمارس أي عمل خبيث في المكسرات، ولم

أنفث في الماء المصان داخل قنينة مسدودة كما يدعي فكرك النمام، فكفاك قلقًا.

لم أجد ضيرًا من تناول القليل من المكسرات المملحة التي لا يختلف طعمها عن أي مقرمشات تؤكل، ثم رنوت إليه بنظرة فضولية لأجسر على أن أسأله بجدية:

- أرجو ألا يضايقك سؤالي الفضولي يا شيخ فضيل.. لكن بودي أن أعرف.. هل أنت ساحر؟ أم ماذا بالضبط؟

أطرق لحظة، ثم ضحك بصوت مكبوت وبيَّن قائلاً:

- أنا شيخ أوتيت من الروحانيات علما، وما أمارسه من طقوس وتعاويذ بعيدة عن إدراك عوام الناس لا يصح أن نعتبرها سحرًا أو شعوذة كما تشيعون تسميتها، بل هي أعمال شريفة لا نبتغي من ورائها سوى خدمة المحتاجين بمقابل زهيد لا نطمع فيه.

ثم استطرد متعمدًا دون أن يمهلني الفرصة لأعقب:

- أرى من الأسلم ومراعاة لوقتك الثمين أن ندع مالا يخص شأنك جانبا، لمصلحتك فلنباشر موضوعك حالاً قبل أن يضيع الوقت منا هباء، فقل لي.. ما الذي يشغل بالك؟

أرخيت جسدي على ظهر الأريكة، ألمحت قائلاً:

- لقد حدثتك عنه في مراسلاتنا بالواتس أب.. ألا تذكر؟!

بحركة تمثيلية أثارت غيظي رفع كفه ليضرب بها جبهته البارزة تعبيرًا عن الدهشة، برَّر قائلاً:

- يلعن شيطاني.. كيف أنساني!.. نعم نعم، تنوي استعادة امرأتك المطلقة، أحقًا ما أقول؟

أومأت رأسي بإيجاب وأنا أتطلع إليه بصبر نافد.

- طيب.. إني لك ناصح أمين، ولا حل أمثل سوى أن تحضر امرأتك المتلبسة بحيلة مشروعة أمامي هنا، ثم تعاونني على ربطها بإحكام، أما الخطوة الثانية والأهم إن لم تعالجها الرقية، أن نبرحها ضربًا بالخيزران حتى يخرج اللعين من جسدها الطاهر، ومن ثم نضمن أنها استعادت عافيتها، فيحل عليك استعادتها بعد ذلك بالإجراءات المسموحة، وفي الختام يحلو أن نقول لك تهانينا.

فغرت فمي دهشة، حملقت في وجهه المدور متسائلاً عن جدية ما تفوه به توًا:

- أنت تمزح.. أليس كذلك؟!

تساءلت بارتياب في حين تطلع إليَّ بدوره مستنكرا، أجابني مصارحًا وقد اكتسى صوته نبرة جدية:

- حاشاني وحاشاك أن أمزح في أمور تمس الأحوال الإنسانية، إن وسوسك الشيطان بداء الشك فاستعذ منه، وإلا فلتبادر بالتجربة حتى تشهد البرهان اليقين ماثلاً أمام عينيك.

عند هذه اللحظة لم أرغب في إضاعة المزيد من الوقت مع هذا المخبول، لذا قمت من على الأريكة قاصدًا الانصراف من غير أن أستأذن.

عبَّر مندهشا بينما أخطو تجاه الباب:

- ما شاء الله!.. هل عزمت أن تحضر المرأة بهذه العجلة! يا لك من صاحب همة عظيمة، لكن ألن تبقى لأجل أطايب العشاء نتناوله تشريفًا بك.

ثم سمعته يضيف وأنا أفرُّ خارجا من الشقة:

- لا تنس جزاء معروفي وفضلي ولو كان الأجر القيم رمزيا.

انتابني الغيظ ليحثني على النزول عبر السلم، قلبي يدق بعنف غير مبرر، سببه -لا سواه - الحماقة التي أقدمت عليها بمحاولة التعامل مع محتال واضح للعيان، أضعت وقتي بلا طائل، لو استغللته في المكوث بغرفتي المتواضعة لكان خيرًا لي.

وقبل أن أعبر بوابة العمارة الكئيبة التي خنقتني ممراتها بروائحها العطنة توقفت فجأة.. إذ تملكني شعور مضطرب نابع عن ذكرى سوداء لا أرجو استحضارها. تتواصل دقات قلبي العنيفة بوتيرة مختلفة هذه المرة، وكأن قنبلة موقوتة توشك على الانفجار زُرعت في باطني، تداهمني رؤيا مجريات ذلك اليوم المشؤوم وتداعياته المؤسفة، كوَّرت قبضتي اليمنى لا إراديًا، أغمضت عينيَّ، أردد أنفاسًا مشحونة بالهيجان في صدري المضطرم، ثار الدم في عروقي، ارتفع مستوى الأدرينالين حتى بلغ صدغي، ولم أتلبث هنيهة حتى استدرت من تلقائي لأنقلب صاعدا درجات السلم مرة أخرى بخطوات غير متزنة بينما تعتمل فكرة واحدة في رأسي، ولما بلغت شقة ذلك النصاب الروحاني طرقت بابها فورًا.

تعبير أبله ممتزج بالاستغراب ارتسم على ملامحه الحائرة لما فتح لي الباب، وقبل أن يتفوه بكلمة بادرته بصرامة وقد شاب نبرتي الكثير من الحذر:

- اسمع يا شيخ.. فلتنس موضوع امرأتي برمته، ولا تأبه له.

ثم أردفت:

- لي طلب آخر، سأكون شاكرًا لو بمقدورك مساعدتي على تنفيذه.. وإني على أتم الاستعداد لأدفع لك بالمقابل مهما تطلبه من ثمن معقول.

***

الفصل الثاني

(دنيا)

(1)

يسهر الليالي ليكتب بشغف وهمة

حتى إن أتى اليوم المنشود،

رماه النقاد بسهام التجريح

غير آبهين لما سيصبح عليه لاحقا.

(سمر محمود)

Samar.alshamlan

- يااااه.. الجو لطيف اليوم، يذكرني بأيام لندن.

هكذا عبَّرت صديقتي (مها) عن شعورها الرائق في هذه اللحظة المميزة لنا نحن الثلاثة، حيث اجتمعنا سوية في مقهى (ستاربكس) بالعاصمة بعد مغادرتنا معرض الكتاب في فترة الظهيرة، لكن لم يستطع صوتها المبتهج قطع اندماجي مع الهاتف. أما (دلال) صديقتي الأخرى فقط اكتفت بمراقبتي في صمت، إذ رحت أعيد مشاهدة المقطع المنتشر

من يومين في التواصل الاجتماعي للمرة الثالثة على التوالي، حتى انتهى بثه في مدة قصيرة لا تتجاوز أربعين ثانية. أغلقت الهاتف ووضعته في حقيبة يدي الفاخرة ماركة لويس فيتون، ثم أكملت أرتشف بقايا قهوتي المخفوقة.

سألتني (دلال) بنبرة متعمدة:

- برأيك.. ما سبب هذا السلوك الغريب؟

أجبتها وأنا أظهر عدم مبالاتي:

- وما أدراني.. مجرد موقف غريب حصل في المعرض وانتشر بسرعة في التواصل الاجتماعي.. ظاهرة صارت عادية.

علَّقت (مها) بسخرية:

- هه.. قد نكون نحن السبب أنا ودلال، لم نشتر كتابه الذي حاول أن يجبرنا على أخذه، فاهتاج على الناس في المعرض.

التفتت إليها (دلال) لترد عليها مستنكرة:

- لماذا تكذبين؟!.. لم يجبرنا الكاتب أصلا على شراء كتابه، بل هو الذي أراد أن يهدينا نسخة بلا مقابل، لكننا اعتذرنا منه ولم يلح علينا كما تدعين.

انحرجت (مها) وارتبكت بعدما كُشف افتراؤها، حاولت أن

تبرر رأيها:

- وهل نسيت يا عزيزتي كيف باغتنا بشكل غير مهذب ليُعرف نفسه كمؤلف لكتابه التافه، بل حتى لم يسمح لنا بالتعرف على محتواه على الأقل، لكن هه.. من يهتم.

لم تكلف (دلال) نفسها عناء الرد، ولم ترغب في إضاعة وقتها في نقاش فارغ كطبعها الرزين، وبدلاً من ذلك التفتت صوبي لتعاتبني بصراحة:

- ألا ترين أنك بالغت في انتقادك في آخر بوست بحسابك؟

ضايقني كلامها، لكني رددت عليها ببرود:

- أنا فقط عبرت عن وجهة نظري، ولم أقصد الإساءة له شخصيا، إن كان لا يحتمل الانتقادات ولا يتقبل آراء القراء، عليه أن يعتزل الكتابة ببساطة.

ساد الصمت بيننا لحظة، قطعتها (دلال) لتنبه لأمر ما:

- كأنه لم يبد أي تعليق أو رد على انتقادك.. أترينه لم يطلع على منشورك؟

تدخلت (مها) قبل أن أرد:

- ليس لديه أي حساب في التواصل الاجتماعي، بحثت عنه ولم أجد اسمه أو معلومات عنه على الأقل.. أستغرب كيف

سيتواصل مع القراء.

بيَّنتُ لهما قائلة بعدما أنهيت قهوتي:

- بالطبع لن تجديه، فاسمه ليس أدهم رفعت، بل درويش عبدالغفار.. إنه يحاول تقليد الفنانين الكبار باختيار أسماء فنية تروج لأعمالهم.

علَّقت (مها) باستغراب لا يخلو من هزء:

- حقًا!.. من يظن نفسه، ج. ك. رولينج.(2)

التفتُّ إلى (دلال) التي بدت سارحة من غير أن تشرب جرعة من كوبها المحمول في يدها.

- ما الذي يشغل بالك؟

التفتت إليَّ بعدما انتبهت لمخاطبتي إياها، أجابتني بحذر:

- لا شيء.. فقط كنت أفكر في سلوك الكاتب الغريب في المعرض وما أثاره من فوضى، أتساءل.. ماذا لو كنت موجودة ورآك فجأة؟

فاجأني سؤالها الذي لم أتوقعه أبدا، ارتبت لحظة، سألتها بدوري وعيناي مسلطة عليها:

- ما الذي ترمين إليه يا دلال؟

ارتسم الارتباك على ملامحها، ألمحت إلى (مها) بنظرة ذات مغزى تطلب منها المعونة، إلا أن رفيقتنا تلك انشغلت بمطالعة هاتفها ولم يبدر منها أي انتباه.

أجابت بصوت غير متزن:

- ظننت إن.. أقصد.. تخيلت لو صادفك في المعرض.. قد يلحق بك الأذى.

لم أعلق على ما سمعته منها، بل نظرت إليها باستنكار، ثم خاطبتها بعصبية:

- هل تزعمين أنني السبب في حصول هذا الأمر المشين؟!.. لست أنا الوحيدة من ينتقد كومة من الكتب الفارغة، لقد أوضحت أن أي كاتب لا يتقبل النقد، عليه ألا يكلف نفسه مشقة الكتابة، وإن كنت أعتقد حالة الهياج التي أصابت ذلك الشخص فجأة لا علاقة لها بي، بل بسبب فشله في تحقيق أي مبيعات، أو سبب آخر.. لا نعلم. مع ذلك أنا متأكدة أنه لن يقدم على التفكير بإيذائي، وإلا فهو مجرد شخص مختل.

هنا أفصحت (مها) من غير أن ترفع عينيها عن شاشة الهاتف:

- قرأت خبرًا منشورًا قبل أيام في أحد الحسابات العشوائية بالانستغرام، عن كاتب أجنبي قذف وجه امرأة

تعمل نادلة بقارورة زجاجية، فقط لأنها انتقدت كتابه.. واضح أنه لم يتقبل رأيها.(3)

التفتُّ إليها لأعترض على كلامها:

- وأنت.. هل تصدقين مثل هذه الأخبار الشائعة التي ليس لها مصدر موثوق؟.. حتى لو افترضنا صحة الخبر، هذه حوادث بديهية تحصل عندهم في المجتمعات الغربية، وليس عندنا نحن المجتمعات المحافظة المتمسكة بالتقاليد.

رفعت (مها) عينيها هذه المرة عن الهاتف، لتواجهني بنظرة مرتبكة، حاولت أن تناقش إلا أنها احتارت وتلعثمت، فتكلمت (دلال) عوضًا عنها:

- ما تعنيه مها أن تتوخي الحذر حتى لو كنت تملكين عددًا كبيرا من المتابعين الذين يؤيدون وجهة نظرك، لكن لا تقللي من شأن العواقب مهما حصل.

بعد ذلك بدقائق معدودة أنهينا الجلسة التي لم تكن أجواؤها ممتعة بالنسبة لي، فلا أخفي عليكم قد أثارت أعز صديقاتي قلقي ومخاوفي، لم يهدأ لي بال عندما انصرفت من عندهما لأقصد سيارتي الخاصة، وأثناء ما كنت أسوق بمهل في الطريق ظلَّت كلمات (دلال) التحذيرية ونصيحتها لي مع ذكر خبر الحادثة على لسان (مها) تتردد في ذهني،

مما فقدت تركيزي وتشتت انتباهي، فلم أنتبه للطريق أمامي، حتى تسببت عن غير قصد بحادث لم يكن بليغا والحمد لله، وإلا ما أمكنني الحديث معكم ربما قط.

***

(2)

إقامة أمسية ثقافية أو فعالية

أدبية، من شأنها أن تشعر

المثقف بروح الانتماء المفقودة،

الانتماء إلى مجتمع واعٍ تسهل ملاحظته.

(أمجد آل قريش)

amjadbooks

كان الشهر الأخير الفائت من العام 2015م حافلاً بالمناسبات الأدبية والثقافية، فمنذ انتهاء معرض الكتاب في البحرين قبل أسابيع ماضية حضرنا ونظمنا العديد من البرامج والأمسيات الثقافية والأدبية، احتضن بعضا منها مركز الإبداع الأدبي الذي أسسه والدي العزيز منذ أكثر من عشر سنوات.

في الأسبوع الأخير من الشهر كان من المفترض أن نستضيف كاتبًا روائيا معروفًا في الوطن العربي والخليج خاصة، لكن لظروف معينة تأجل اللقاء إلى وقت لاحق من الأسبوع الثاني لشهر يناير من السنة الجديدة.

ولما حلَّ اليوم المقرر للقاء، لم يكن في استقبال الكاتب بالمركز -الذي حضر قبل بدء الأمسية بنصف ساعة- سوى أنا ووالدي، إضافة إلى ثلاثة من عاملي ومنتسبي المركز، ما أثار الأمر استغرابنا وحرجنا في نفس الوقت، لكن الأدهى من ذلك.. لم يتغير الحال أبدا بعد مرور فترة من الوقت، حتى تجاوزت فترة اللقاء المقرر في الساعة الثامنة مساء ما يزيد على العشرين دقيقة، ولم يحضر أحد سوانا مطلقا! رغم ما تم نشره من إعلانات تذكيرية حول الفعالية في حسابي وغيره من المواقع.

بعد ذلك تجاوز الوقت التاسعة مساء، حيث عادة ما ينتهي أغلب الفعاليات عند هذا الوقت تحديدا، ولم نرصد أبدا أي دلالة على ظهور ولو شخص واحد فقط، أمر غريب حقا!

وكمحاولة لإنقاذ الموقف قمنا أنا وأبي المرتبك بإجراء بعض المكالمات الهاتفية لعدد من المعارف، منهم من اعتذر عن الحضور لظروف خاصة، ومنهم من لم يرد أصلا، أما صديقتاي (مها) و(دلال) فتقاعستا عن الحضور بلا مبرر، رغم وعدهما إياي من قبل.

لم يستطع أبي أن يخفي إحراجه عن الضيف أثناء جلوسنا معه نتحادث في أمور عامة لا تثير الاهتمام، حتى أن عاملي المركز بدوا مضجرين لا يودون سوى إنهاء الأمسية الفاشلة

والانصراف حالا. وفي النهاية ودعنا الضيف الذي عاد إلى مكان إقامته بفندق فخم، وغادر إلى بلاده في اليوم التالي ظافرًا بمستحقاته المادية التي لم تكلفه شيئا من العمل المطلوب.

في تلك الليلة بعد الأمسية الخائبة المفترضة عدت بصحبة أبي إلى المنزل وأنا مستاءة، ولا أعلم بشأن والدي إن خفَّت حدة استيائه أم لا بعد دخوله البيت. أويت إلى غرفتي مباشرة، وهي بالمناسبة أعتبرها مع ما تحويه من مكتبة عامرة أنيقة مع ممتلكاتي الخاصة بمثابة عالمي الخيالي البهيج، لا أقبل أن يشاركني بها أحد.

ارتديت منامتي ثم استلقيت على سريري، ولم أتناول من العشاء سوى طبق الفواكه الذي أعددته بنفسي، فأنا أحرص جدًا أن أحافظ على لياقتي ورشاقتي السليمة.

كعادتي اللازمة وعادة أغلبكم حتى، رحت أتفقد هاتفي في ضوء مصباح الأباجورة الناعم، بينما أقاوم رغبتي الملحة للنوم الذي أعياني تمامًا. دخلت صفحتي بالانستغرام، أعاين الوضع، متابعون جدد عددهم حوالي سبعة أو ثمانية انضموا اليوم، ثم انتقلت أراجع المنشور الأخير الذي أضفته يوم أمس، محتواه لم يكن سوى مجرد إعلان عن اللقاء الأدبي المفترض اليوم الذي غاب عنه الحضور تماما. للمرة الثالثة

رحت أعاين وأتحقق من تاريخ ووقت الموعد بدقة.. مثلما هو بالفعل، لم أجد فيه أي خطأ أو شك حتى، بل تم نشر الإعلان في الصحف وغيرها من المواقع الثقافية المهتمة، حتى أن مستوى التفاعل ظهر إيجابيا بشكل فائق، مما توقعنا أن تغص القاعة عن آخرها، لكن لم يحضر أحد بتاتا.. لماذا يا ترى؟!

***

كالعادة استيقظت متأخرة في فترة الظهيرة، فقد ظللت ساهرة حتى الساعة الثانية تقريبا بعد منتصف الليل، لم يشغلني شيء سوى هاتفي، بل أضعت وقتي وحرمت نفسي المرهقة من النوم بلا داعٍ، إذ كنت أدردش مع صديقاتي وبعض معارفي حول الأمسية الأدبية المفترضة وغيرها، اضطررت أن أكذب عليهم زاعمة بأن اللقاء كان مميزًا وأمام عدد غفير من الحضور، لكني ارتبكت حين سألتني إحداهن بشأن التغطية ونشرها في حسابي أسوة بتغطية الفعاليات السابقة، فوعدتهن بنشرها لاحقا بعد تجهيز الصور واستلامها من قبل المصور، وآمل أن ينسين الأمر برمته مع مرور الوقت ولا يذكرنه لي البتة.

آه.. علي أن أجبر نفسي على النهوض لأغسل وجهي وأزيل آثار النوم عن عيني المشوشتين، لا أستطيع أن أرى المعالم

حولي بوضوح، مشيت بمهل إلى المغسلة، ملأت كفيَّ بالماء ثم صببته على وجهي عدة مرات متتالية، بعدها نظرت إلى انعكاس صورتي في المرآة.. مازالت رؤيتي باهتة ومشوشة، وكأن أطنانا من الغبار تحجب بصري. مزيدا من الماء صببته على وجهي، أركز النظر عن كثب، أبذل جهدًا لأرى صورتي بوضوح.. حالة رؤيتي كما هي لم يطرأ عليها أدنى تحسن، بل أرى الآن بقعا صغيرة طافية في مجال رؤيتي. يا إلهي!.. ماذا أصاب عينيَّ؟ هل بسبب إفراطي في مطالعة شاشة الهاتف ليلة أمس على ضوء خفيض؟ لا أعتقد ذلك، ولا أرجو استصواب هذا السبب.

أفرك عينيَّ عدة مرات، أشعر بألم مزعج مصحوب بلسعة حارة يوخز كلا حدقتي عينيَّ، دموع لا إرادية تنساب منها بشكل متقطع، أواصل التفريك، أبللهما من جديد، كأن الوضع قد ازداد سوءا، أصرخ أنادي أمي مستغيثة بعد أن انتابتني نوبة من الفزع. خلال لحظات أتت أمي مسرعة، تبعتها شقيقتي الصغرى (أميرة) ذات السبعة عشر عامًا.

سألتني أمي باستغراب:

- ما بك؟!.. لماذا تصرخين؟

أجبتها بصوت مضطرب وأنا أفرك عيني:

- عيناي.. لا أعلم ما خطبها، لا أستطيع أن أرى جيدا.

ولما خفضت كلتا يدي نظرت تجاههما وواجهت صعوبة في تمييزهما، كان منظرهما عبارة عن صورة طيفية قاتمة، كأن ستارا سميكا من الضباب يغشي بصري.

هنا صاحت شقيقتي مصدومة لما رأت حالتي:

- يا إلهي!.. دنيا.. عيناك حمراوان جدًا، وزائغتان.. لا تبدوان على ما يرام، تبدين.. مخيفة.

***

(3)

إن الأكثر إيلاما للكتاب من هجره،

أن يكون قارئه غير جدير به.

(حور أحمد)

تم تشخيص حالتي البصرية بالتهاب حاد في القزحية الذي لم يعرف سببه الرئيسي، ولم يكن للهاتف دخل بهذا العارض غالبا، وإن كان علي أن أتجنبه قدر الإمكان لفترة غير مقدرة، حتى لا تسبب إشعاعاته مضاعفات ضارة، قد يكون الخلل ناجما عن عدوى فيروسية أو بكتيريا طفيلية بحسب تشخيص أخصائي العيون بعد أن أجرى لي عدة فحوصات مطولة ومزعجة، كما وصف لي مضادا حيويا مع دواء مسكن للالتهاب، آمل أن يكون فعالا، فأنا منذ الصغر أمقت الأدوية وأنفر منها بشدة، عدا ذلك سأضطر أن أحمل عبئا على وجهي من خلال ارتداء نظارة طبية سميكة لبقية حياتي، بسبب تداعيات الحالة المفاجئة التي سببت لي قصورا في النظر أيضا، ما لم أعتني ببصري بحرص بالغ مع اتباع إجراءات علاجية فعالة قد تكلفني ثمنا باهظا.

ثمة أمر آخر كدر نفسيتي بشدة واعتراني الاكتئاب، إذ يجب علي أن ألتزم حرفيا بالتعليمات الصحية الصارمة، خاصة في هذه الفترة الحرجة، فكما ذكرت من قبل علي أن أتحاشى النظر إلى الأضواء الحادة والإشعاعات المنبعثة من شاشة الهاتف ونحوها، وهذا لا يعني سوى الانقطاع عن العالم الافتراضي –الذي أعتبره جزءًا لا يتجزأ من حياتي– لفترة معينة أجهل مقدارها ولا أرجو أن تطول أكثر من أسبوعين كما أخبرني الطبيب، وليس علي سوى أن ألتزم بالصبر، وأعترف لكم أنني لا أتحلى به للأسف كطبعي المذموم. أما الخبر المطمئن هو ما أعتبره عزائي الوحيد بالنسبة لحالتي النفسية المتذبذبة، أعني بالطبع لا سوى الكتب بديلا عن مؤانستي في فترتي الحالية العصيبة، لهذا ترونني عاكفة في غرفتي أغلب الأوقات، منشغلة بالقراءة وتلخيص الكتب المقروءة في كراستي الخاصة، كي أنقلها لاحقا في حسابي بالانستغرام بعدما أتماثل للشفاء التام.

لكن حذاري من إجهاد عيني في المطالعة، لا بد أن أمارس هوايتي الأثيرة بحذر واعتدال. أما بشأن متابعيَّ الأعزاء بالحساب فلم أخبرهم بعد بما أمر به حاليا، لي أمل كبير في أن تحدث معجزة ما وأشفى تماما.

بعد مرور أسابيع وعدة أيام هبَّ علينا جو نهاري لطيف

ومنعش من أوائل شهر مارس، كانت الساعة تشير إلى الثالثة عصرا وقتها، بعدما تناولت الغداء مع الأسرة خطر في ذهني أن أقضي بعض الوقت جالسة في الفناء، أقرأ كتابا مسليا يناسب حال الجو اللطيف اليوم. انتقيت رواية اسمها (متحف الأرواح) للكاتب المبدع (عبدالوهاب الرفاعي) الذي سبق أن قرأت له إحدى مؤلفاته من سلسلة (حالات نادرة) وقد راقت لي فعلا.

حملت معي كوب شاي ساخن مع قطع من البسكويت المملح، وجلست على الأريكة الموجودة بجانب الرقعة المزروعة، أمامي بالطبع طاولة خشبية مستديرة لأضع عليها حاجياتي. كالعادة قبل الشروع في قراءة أي كتاب لا بد أن أقلبه بين يدي وأتحسس واجهتي غلافه الأمامية والخلفية، أمعن النظر في تصميمه الجذاب، بعد ذلك أنتقل لقراءة الملخص في الغلاف الخلفي بهدوء. لما انتهيت من قراءة الملخص لا أعلم لماذا لم أستوعب أي كلمة من مضمون الملخص وفكرة الرواية بشكل عام، أعيد قراءته من جديد، أيضا لم أستوعب الفقرة المكتوبة بإيجاز مبسط، لم أفهم حرفيا مقصد الكاتب هنا، أرواح!.. ما هي الأرواح؟.. وما الذي يرمز إليه لفظ المتحف؟ هل يشير لمكان معين؟.. لم آبه كثيرا، أحيانا يتعمد بعض الكتّاب إبراز الملخص بشكل غامض رغبة في جذب انتباه القارئ ليس إلا.

فتحت الصفحة الأولى من الرواية وأخذت أقرأ بهدوء واسترخاء، أو أحاول على الأقل ألا أتعجل ولا أتوتر. لكن هل تصدقون؟!.. انتهيت من قراءة خمس صفحات ولم أستوعب كلمة واحدة مما ورد في تلك الصفحات، رغم بساطة أسلوب الكاتب (عبدالوهاب الرفاعي) كما يتفق قراؤه، لكني فعلا لم أفهم –أنا القارئة النهمة لكتب أكثر عمقا وتعقيدا– القصة من البداية سوى ظهور شخصية تدعى (صغيرة)، لا أدري إن كان اسمها فعلا هكذا، أم هو مجرد وصف حجم جماد ما.

تركت الكتاب على الطاولة لأعود إلى غرفتي مسرعة، وقفت أمام مكتبتي الفسيحة العامرة بالكتب المتنوعة، ومن الرف المخصص للروايات البوليسية التقطت رواية لأجاثا كريستي، أخذت أقرأ ما فيها بعجالة من الصفحة الأولى حتى الصفحتين التاليتين، ولم أستوعب جملة واحدة ولا كلمة، كأنني أنظر إلى مجموعة طلاسم غامضة صعبة التفكيك. وضعت الرواية على رف جانبي شبه فارغ، لأسحب رواية (يا بعده) للكاتبة (علياء الكاظمي)، نفس الحال.. لم يعي ذهني أي عبارة من فقراتها الخالية من التعقيد. أشعر بثقل وصداع في رأسي بسبب بذل جهد مرهق في محاولة الفهم مما أقرؤه الآن، تناولت كتابا آخر تلو الآخر بشكل عشوائي، لم يتغير الحال مطلقا، عجزي عن الاستيعاب

مستمر، وكأن ذهني تعطل تماما عن الإدراك، أعصابي بدأت تضطرب، رأسي توشك على الانفجار، انقلبت أتصرف بهمجية، كلما مسكت كتابا ولم يطرأ علي أي تغيير، رميته على الأرض أو قذفته بقسوة في الهواء، حتى وجدت نفسي بعدما طاشت أعصابي أنثر الكتب المرصوصة التي تطالها يدي من على الرفوف، وقد أحدث سقوطها صوتا مسموعا، حتى أن بعض الكتب قد تمزق أو انفصل غلافه أثناء رميي إياها بعنف، أصرخ بسخط، انهارت دموعي وأعصابي، ولم أتوقف حتى دخلت علي أمي مذعورة بعدما سمعت صرختي.

هرعت لتهدئتي وهي تخاطبني بقلق:

- بسم الله عليك.. ما خطبك.. لماذا تصرخين بهذا الشكل؟

ابتعدت عنها لأنهار على فراشي، ثم غطيت وجهي بكفيَّ وظللت أنخرط في بكاء مرير، جلست أمي بجانبي، تمسح على رأسي بإشفاق، تبسمل وتحوقل، تقرأ علي بعض الأذكار ولم تكفَّ عن محاولة تسكين روعي:

- حبيبتي.. قولي ما خطبك؟.. هل اعتلال صحة عينيك جعلك محبطة تتصرفين بغرابة لم نعتدها من ابنة مثقفة مثلك، بإذن الله ستكونين على ما يرام قريبا، اصبري.. اصبري بالله عليك.

حاولت أن أنطق وأبين لها عجزي عن القراءة وكأنني طفلة أمية لم تنل حظا من التعليم، إلا أن بكائي المرير لم يسعفني، حتى انتبهنا لصوت (أميرة) شقيقتي تسألني أثناء دخولها الغرفة:

- دنيا.. رأيتك تحملين معك رواية متحف الأرواح، ألم تقرئيها من قبل؟ بل أتذكر حتى أنك قيمتها في حسابك قبل أسابيع فائتة.

***

(4)

مكتبتي عزلتي، وساحة حربي وانتصاري،

هي بوابتي للحياة وللاستمرار في هذه الحياة.

(زهراء الجبيلي)

zahraa_reads

ازدادت حالتي النفسية سوءا في الأيام اللاحقة، كما لاحظت أسرتي أنني صرت عصبية أكثر من ذي قبل، سرعان ما أغضب وأتذمر لأوهى الأسباب، هذا عدا الكوابيس الغريبة التي تداهمني في هذه الليالي الموحشة بالنسبة لي، فليلة أمس حلمت أنني أرتدي نظارة عريضة أكبر من عرض وجهي، وأمامي تنتصب مجلدات من الكتب الضخمة بحجم الباب، تراكمت على بعضها طبقات طبقات، ولا أعلم لم كنت أحاول بجهد مستهلك تسلقها مرارا وتكرارا، إذ كلما وصلت إلى المنتصف اختل توازني ثم سقطت إلى الأسفل، وفي المحاولة الأخيرة انهارت علي تلك الكتب الضخمة بشكل مخيف، لأستيقظ من نومي فزعة قبل أن أدفن تحت ركام تلك المجلدات الهائلة. يبدو أن تأثري بقصة وفاة الأديب الجاحظ جعلني أحلم بهذا الكابوس المريع(4).

سعت أسرتي جاهدة أن تعينني نفسيا وتخفف من آثار العلة الغريبة التي حلَّت بي فجأة من غير سابق إنذار، كما حاول كلا والديَّ ومعهما أختي الكبرى (هنادي) المتزوجة حديثا إقناعي بالذهاب إلى الطب النفسي، إلا أنني رفضت بعناد، بغض النظر عن علاقتي المتوترة بهم، حتى تجاوزت حالتي النفسية حدودها، إذ وهنت عافيتي إلى حد خطير، ناتج عن تعرضي لفقدان الشهية الذي بسببه فقدت الكثير من وزني، ومن يرى نحول جسدي وشحوب وجهي واصفرار لوني يظنني مصابة بمرض عضال يتعذر علاجه.

عند ذاك رضخت مستسلمة لأوامر –نعم أقول أوامر هذه المرة– والدي بالذات، إذ قام بتأنيبي ثم اصطحابي إلى العيادة النفسية على وجه السرعة، ولم يكن الأمر ليصل به إلى هذا الحد لولا استمراري في إثارة قلقه لفترة طويلة.

مثلما توقعت.. لم تستغرق الجلسة مع المعالج النفسي الكثير من الوقت، فهو لم يجد صعوبة في فهم حالتي الغريبة المشابهة لحالات عديدة سبق أن تعامل مع عشرات مثلها من قبل كما أتصور. أما نتيجة تشخيص أزمتي النفسية وما صاحبتها من تبعات، فلم تخرج عن نطاق معاناتي من كثرة الضغوط المرتبطة بالدراسات العليا التي أُحضرها منذ سنوات، هذا عدا مسؤولياتي المرتبطة بالبرامج وأنشطة

المركز الأدبي، وبالطبع لاعتلال بصري وابتعادي الإجباري عن عالمي الخاص في الواقع الافتراضي تأثير كبير على حالتي النفسية وعلى عجزي عن القراءة والاستيعاب بصورة واضحة. وكما هي العادة التي أكرهها قبل الانتهاء من الجلسة وصف لي دواء مضادا للاكتئاب ودواءين آخرين، أحدهما للأعصاب والآخر لفتح الشهية عند اللزوم، مع تحديد جلسة أخرى لمتابعة حالتي إن طرأ عليها تحسن، فهي في النهاية لا تستدعي القلق أو هذا ما أرجو، طالما أنها مشابهة لحالات عديدة كما يراها البعض.

لكن بعد عدة أيام حدث ما أسميه بالمعجزة، إذ استيقظت وقت الفجر بسبب شعوري بالجوع!.. تسألونني وما الغرابة في هذا الأمر؟.. ألا تلاحظون؟! أنا التي لم أستسغ ابتلاع ولو لقمة واحدة من الطيبات ولذائذ الأكلات طوال الأسابيع الماضية، صرت أشتهي الآن تناول أي شيء يؤكل، بل أتلقى شكوى معدتي وهي تقرقر، لكم أفتقد هذا الشعور المحبب منذ فترة معدودة، لكنها مرَّت علي كدهر، وها هو يراودني بعد غيبة لا تحتمل.

قبل أن أتوجه إلى المطبخ لأتناول شيئا أسد به جوعي، وقفت أمام مغسلة الحمام الملحق بغرفتي، ملأت كفيَّ بالماء وصببته على وجهي لمرتين متتاليتين، ثم تأملت انعكاس

صورتي الجميلة والواضحة في المرآة، ابتسمت لا شعوريا بحماسة في وجهي بالمرآة، أشعر بمعنويات عالية تملكتني فجأة، ولا أعلم لماذا؟ لكن ما إن خطوت قليلا لأخرج من الغرفة حتى استدرت فجأة لأعود إلى المغسلة مرة أخرى، أقف متسمرة أمام المرآة لأحملق في صورتي المنعكسة. يا إلهي!.. لا أصدق.. إنني.. إنني أرى نفسي بوضوح، رؤية تامة لا يشوبها شك بتاتا، ولا يعكرها أي تشويش، المعالم حولي وكل شيء ظاهر أبصره بلا أدنى صعوبة، بل حتى لم أضطر لارتداء نظارتي السميكة المضحكة أصلا هذه المرة، وكأن عينيَّ قد كذبتاني ولم تشكوا من أي خطب البتة.

أدور ببصري حول الغرفة مبهورة الأنفاس، كالمشتاقة إلى مكان يحظى بمعزة عظيمة على قلبي المتلهف، وكأنني أُجسد شخصية (أليس) في حكاية (أليس في بلاد العجائب) حين عادت في نهاية القصة إلى منزلها بعد رحلتها المغامرة.

مهلاً.. هذه الحكاية أتذكرها جيدا، بل أحفظها عن ظهر قلب، ألم أكن نسيتها طوال فترة قريبة! نعم، فمع معاناتي من عسر الفهم والقراءة، اختلَّت ذاكرتي أيضا، فكل معلوماتي وذكرياتي عن الحكايات والكتب التي قرأتها قد تبخرت تماما، مهما حاولت استرجاعها في ذهني الذي أصبح خاملا طوال فترة أزمتي وعنائي، لكني الآن وأنا جالسة على حافة

سريري متخذة وضعية تأمل، أتلقى بعض الومضات في ذهني، آتية من الكتب التي قرأتها من قبل، أشعر بها داخل رأسي وهي تنمو وتتسع تدريجيا، ومن الدهشة أيضا اتسعت عيناي وهي تتطلع إلى صفوف الكتب الظاهرة على مقربة مني، ولم أقم من مكاني إلا بعدما طرأت علي فكرة مأمولة، أرجو بإخلاص أن أخرج منها بنتيجة إيجابية.

وقفت في مواجهة مكتبتي العريضة التي تحتل مساحة كبيرة من الحائط، أرغب انتقاء كتاب مناسب للتجربة، لكنني أعيش هذه اللحظة حالة صراع داخلي ما بين التردد والحيرة من جهة والقلق والتوجس من جهة أخرى، لم يدم الأمر طويلا حتى سحبت نفسا عميقا، بعدها مددت يدي لأسحب من رف قسم كتب الأدب كتاب (العبرات) للأديب الكبير (مصطفى المنفلوطي). ظللت ثابتة في مكاني وأنا أحمل الكتاب في يدي، مترددة.. لا أجرؤ على فتحه، وكأن ما ينتظرني بين دفتيه لهو مصير فظيع لا محالة، قلبي يخفق بصورة غير طبيعية، لا أعلم هل بدافع الحماسة أم التوتر. التقطت مرة أخرى نفسا قصيرا وزفرته، بعدها فتحت الكتاب على صفحة عشوائية لأقرأ مباشرة السطور التالية.. (الأشقياء في الدنيا كثير، وأعظمهم شقاء ذلك الحزين الصابر الذي قضت عليه ضرورة من ضروريات الحياة أن يهبط بآلامه وأحزانه إلى قرارة نفسه فيودعها هناك، ثم يغلق

دونها بابا من الصمت والكتمان، ثم يصعد إلى الناس باشّ الوجه، باسم الثغر متطلقا متهللا، كأنه لا يحمل بين جنبيه همدا ولا كمدا).

أتممت قراءة الفقرة بكل سلاسة ويسر، يا إلهي!.. لا أصدق، أخذت أتأمل في تلك الكلمات البليغة ومعانيها التي لامست مشاعري، لم أجد أية صعوبة في فهمها مطلقا.

قلبت المزيد من الصفحات، لأقرأ المزيد من الفقرات العشوائية، ومنها عدت إلى الصفحة الأولى، ثم انتقلت إلى الصفحة الأخيرة وأنا مذهولة، ها أنا ذا أشعر بالكلمات ومعانيها تتدفق إلى ذهني بسلاسة واطمئنان. حملت مجموعة أخرى من كتب عشوائية وجلست على سريري لأجرب قراءة مقتطفات منها، نعم.. لم أشكو بتاتا من استيعابها. يا لدهشتي، أصبحت قادرة على القراءة، ومستوى استيعابي على ما يرام مثل الأيام الخوالي.

تركت الكتب من يدي، اندفعت مسرعة لأخرج من الغرفة، قصدت غرفة والديّ، ومن غير أن أستأذن دخلت بشكل مباغت، رأيت أمي واقفة خلف السجادة تتأهب لصلاة الفجر، فما كادت ترفع كفيها لتكبر حتى أوقفتها فجأة بصوت مرتفع، ولم أستطع أن أسيطر على انفعالي وعلى أنفاسي اللاهثة:

- أمي.. لقد.. لقد.. صرت على ما يرام.. عدت لـلـ.. لحالتي الطبيعية أخيرا.. أجل، أنا بخير.. بخير يا أمي.

***

(5)

في المقاهي أجد عزلتي المليئة بالحياة..

ما بين تفاصيل السطور وفنجان قهوة.

(ليان محمد)

l.m.k.12

أعيش هذه الأيام فترة نقاهة مثالية من بعد ما تعافيت كليا، كما أن حالتي النفسية والذهنية قد تحسنت بوضوح، فما عدت أشكو أي خطب، وكم سُعدت وأسعدت من حولي أيضا حين رجعت لممارسة حياتي المثالية وعاداتي الإيجابية السابقة، مثل القراءة التي تستحوذ على أولى اهتماماتي، بعد ذلك عكفت على تنشيط حساباتي في برامج (السوشيل ميديا) خاصة الانستغرام.

كنت متأكدة تمام التأكيد أن ما أصابني من خطب مجرد عارض ويزول في أي وقت، لكن أسرتي توعز سبب شفائي للأدوية التي يفترض أني التزمت بتناولها حسب التعليمات. حسنًا.. بيني وبينكم، سأطلعكم على سر، هل تصدقون.. لم أبتلع أي جرعة من أدويتي العلاجية سوى مرة واحدة فقط ابتلعت فيها حبة واحدة للاكتئاب في الليلة التي تلت زيارتي

للعيادة النفسية.

لا تلوموني.. لقد أخبرتكم من قبل بشأن علاقتي العدائية مع الأدوية، أليس كذلك؟ إذًا لننس ما حصل ولأستمتع بفترة نقاهتي، كما عليّ أن أستعد لإعداد برامجي وأنشطتي القادمة، نعم، ماذا يتوجب علي القيام به.. آه، تذكرت.. الأسبوع القادم سأستأنف تحضيري للماجستير في تقنية المعلومات، وقد قررت اليوم أن أستنشق بعض الهواء وأصفي ذهني، أتوق بصراحة للخروج من المنزل والجلوس في مكان رحب لمراجعة أموري الخاصة التي منها موضوع دراستي للماجستير. رأيت من الأنسب لو أجلس في مقهى أو مكان هادئ غير مزدحم بعيد عن الملهيات، إلا أن غريزتي الاجتماعية تهوى الجلوس في أماكن ملائمة رحبة تتسم بالتفاعل والحيوية، وأصارحكم أكثر، أميل لبعض الضجيج قليلا، ربما بسبب عزلتي المفروضة التي عشتها كرها، الناجمة عن.. إممم، حسنا لا أرغب إضجاركم بالحديث عنها مجددًا.

لنعد إلى محور حديثنا، لقد قررت قضاء فترة من الوقت في إحدى المقاهي بمجمع السيتي سنتر بالعاصمة، وإن تسنى لي الوقت وراق مزاجي ربما أقصد السينما بعد ذلك.

قبيل الساعة الرابعة والنصف عصرا كنت أتجول بهدوء في ممشى المجمع بأحد الأدوار الثلاثة، أتفقد بعض المحلات

النسائية المختصة بالموضة، ولما اكتفيت بعد جولة قصيرة خطر لي التوجه إلى المقهى المفضل لي (ستاربكس)، لكن سرعان ما عدلت عن قراري لما صادفت مقهى (كاريبو) الذي جذبتني أجواؤه الرحيبة أكثر من النظرة الأولى.

ألقيت نظرة متأنية على قائمة المشروبات، ثم اخترت منها قهوة الموكا الساخنة بالشوكولاتة الداكنة مع كريمة مخفوقة، بعد ذلك توجهت للجلوس إلى طاولة قريبة من المدخل المفتوح.

أثناء انتظاري تجهيز المشروب انشغلت -قبل البدء بمراجعة مهامي-بالتأمل في أجواء المجمع الذي لم يكن مزدحما جدا بالحضور، إلا أن الحركة بدت فيه نشطة كالمعتاد.

شعور غريب ينتابني اللحظة بعد أن بقيت لظروفي المتأزمة ملازمة لمنزلي بعيدة عن أماكني المفضلة مثل المجمعات التجارية ونحوها، وأنا كشخصيتي الاجتماعية لست ممن يهوى البقاء في المنزل عادة، فكان وضعي أشبه بالإقامة الجبرية.

عدت من شرودي القصير، إذ انتبهت للنادلة تناديني لاستلام طلبي الذي تم تجهيزه بشكل مغرٍ على صينية صغيرة أنيقة، حملت الصينية بنفسي وجلست. وقبل أن أراجع كراستي المخصصة لبحوث الماجستير وغيرها، فكرت

استخدام هاتفي أولاً لغرض تفقد حسابي بالانستغرام، فقد نشرت تقييما جديدا لرواية (فئران أمي حصة) للكاتب القدير (سعود السنعوسي) يوم أمس، أتطلع فعلا لمشاهدة تفاعل وتعليقات المتابعين الأعزاء وغيرهم.

فتحت الانستغرام، قبل أن أدخل صفحتي مررت بإيجاز على بعض المنشورات الجديدة من قِبل حسابات أتابعها، أنقر على علامات الإعجاب من غير أن أكلف نفسي بمطالعة المنشور، بعد قرابة أكثر من دقيقة دخلت صفحتي وكلي حماسة وترقب لتلقي ردود الأفعال الكبيرة كما أتعشم.

ما هذا؟! لا أجد أي تعليقات على منشوري الجديد ولو رمزا واحدا من الرموز المختصرة، والأغرب عدد الإعجابات من بدء طرح المنشور حتى الآن لم يتجاوز أكثر من خمسة! أمر غريب صراحة، لقد اجتهدت واستغرقت فترة لإعداد تقييمي لهذه الرواية الرائجة لكاتب غني عن التعريف، لكن في النهاية لم أحصل سوى على نسبة ضئيلة من مؤشر الإعجاب. حتى منشوراتي السابقة لا أجد أي تفاعل، ألاحظ أيضا عدم ظهور أي مؤشر على إضافة متابعين جدد منذ أكثر من أسبوعين فائتين، بخلاف ما اعتدت أن أتلقى سابقا بين فترة وأخرى، بل على العكس نسبة المتابعين قد انخفضت قليلا، هل كل هذا التجاهل والنفور بسبب غيابي مؤقتا الفترة الماضية عن

الواقع الافتراضي؟ ولِم أقلق، هذه أمور بديهية تحصل في واقع العالم الافتراضي.

أطفأت الهاتف وعدت لارتشاف مشروبي الدافئ ذي النكهة الغنية، أحاول أن أتلذذ من رشفاتي الصغيرة وأستمتع بوقتي قدر الإمكان. لكن ثمة أمر عكَّر مزاجي قليلا في هذه اللحظة، مما منعني من استكمال مشروبي. نظرات ذلك العامل الآسيوي وهو يعدُّ طلبات الزبائن لا تريحني، فقد أخذ يرمقني ببرود من غير أن يرمش، ولا أعلم السبب.

تحاشيت النظر إليه، أحاول ألا أعير له بالاً، نظرت في اتجاه آخر لأصادف العاملة الواقفة خلف جهاز المحاسبة ترمقني أيضا بشكل ثابت ولم تزح أنظارها عني لحظة. لا أعلم شأن هذين الاثنين، ينظران إلي بلا سبب، وكأنهما يراقبانني ليتأكدا من إفراغ كوبي حتى القاع ولا أدع منه قطرة واحدة. لكن مهلاً.. ليسا هما فقط، أرى ثلاثة من الزبائن – فتاتان وشاب- يقفون عند منضدة الطلبات استداروا نحوي فجأة، وراحوا يحدقون فيَّ بدورهم، وشيئا فشيئا تحول جميع من في المقهى لتسليط أنظارهم الغريبة علي فقط، كلهم بلا استثناء، نظراتهم جامدة خالية من أي تعبير مفهوم. بدأت أتوتر، قلبي يدق بعنف، تغير حال الجو فجأة، أو أنا التي أشعر بحرارته التي سرت بجسدي، ليسوا هم

فحسب، بل حتى المارة خارج المقهى ارتعبت منهم وشهقت لا إراديا إلى حد أني أوشكت على الإغماء، إذ رأيتهم يتطلعون إلي بذات النظرة الباردة الخالية من أي تعبير وهم يسيرون في طريقهم ببطء.

خرج صوتي بنبرة مذعورة حين خاطبتهم بمشقة:

- ممـ.. ماذا هناك؟! لـ لـ.. لماذا تنظرون إلي هكذا؟

لم يجبني أحد منهم أبدا، وكأنهم تحولوا إلى آلات خرساء مبرمجة على المراقبة فقط بتلك النظرات الجامدة. ظهر رجل كهل يرتدي بذلة أنيقة وجلس بجواري، لم يقم بأي شيء سوى التحديق بي مثل الآخرين.

لم أستطع التحمل، حملت أشيائي لأنهض من مكاني على عجالة، وأغادر المقهى تاركة خلفي مشروبي الذي لم أهنأ به ولم أتجرع منه سوى رشفات قليلة.

أمشي عبر الممر، مندفعة.. مرتبكة.. متثاقلة، لم أتمهل لحظة، أواجه حشد الزوار الذين ازدادوا أكثر من قبل، أمرُّ عبر الزحام، وكل الذين أصادفهم في طريقي ظلوا يحدقون فيَّ بذات النظرات الجامدة، بل لم يكفوا عن ملاحقتي بأنظارهم إلا بعدما غبت عن مجال بصرهم، حتى وصلت إلى موقع مدخل قاعات السينما الواسع الذي امتلأ بالناس

والضجيج. فجأة! حدث أمر غريب كاد أن يسقط قلبي من الهلع، لقد خمد الضجيج كليا دفعة واحدة، فبدا المكان كأنه خلا من أحد، إذ ما حدث الآن أمر يفوق الغرابة، لقد التفت الكل، الكل بلا استثناء – حتى موظفي أكشاك قطع التذاكر- للتحديق فيّ بتلك النظرة.. حسنا ليس من داعٍ لتكرار الوصف. لكن من هذه اللحظة لم أتوان ثانية، انطلقت أجري رغم أن حذائي ذو الكعب العالي لم يُعنّي، بل بسببه تعثرت مرتين، لكني واصلت الجري بين حشد الناس الذين وقفوا يراقبونني بعيون شاخصة. غلب المجمع صمت شبه تام، أكثر ما يقطعه صوت خطواتي الراكضة، أواصل الفرار لاهثة، أنفاسي تتلاحق، قلبي لا يحتمل، قد يتوقف في أية لحظة بسبب دقاته المفرطة، بينما عيناي قد تفجرت بالدموع لا إراديا جراء فزعي. أصرخ مرتاعة، لا أجد أية ردة فعل من الناس الواقفين في كل مكان سوى مراقبتي بأنظارهم من غير أن ينبسوا ببنت شفة، حتى وأنا أخرج من المدخل متجهة إلى سيارتي المركونة في المواقف، ظلَّ من لقيته في طريقي يتصرف مثلهم بنفس تلك الحالة الغريبة.

لما فتحت باب سيارتي واحتميت فيها، نظرت إلى وجهي الغارق بالدموع في المرآة الأمامية، لا أجد ما يريب، فلم ينظر إليّ الجميع؟!

توقفت سيارة صغيرة بجانب سيارتي، خرجت منها عائلة مكونة من أربعة أفراد، وبدلا من أن يتحركوا متجهين إلى المجمع، تجمدوا أمام النافذة الجانبية من جهتي و.. لا داعي أن أصف نظراتهم المسلطة عليّ بتركيز شديد.

كردة فعل مني أدرت محرك سيارتي بعصبية ثم انطلقت فورا مسرعة من غير أن أتمهل أبدا لأغادر مواقف المجمع. وفي الطريق كلما توقفت عند إشارة مرورية أو غيرها، تكررت ظاهرة المراقبة الغريبة المخيفة علي من قبل الجالسين في السيارات القريبة مني، حتى صحت فيهم أتوسلهم بانفعال عند إشارة مرورية حمراء استمرت لفترة مطولة في طريق فرعي.

- لا.. لا تنظروا إلي هكذا، يكفي..أرجووكم.

وما كادت الإشارة تتحول إلى اللون الأصفر حتى ضغطت دواسة السرعة لأنطلق بتهور متخطية الإشارة، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ توقف عامل آسيوي لتوصيل الطلبات بدراجته النارية أمامي، لينظر إلي عن كثب، فلم أستطع أن أتفاداه، صدمته مباشرة وبقوة، مما تسببت بسقوطه من على الدراجة، بعدها ظل مرميا على الأرض يتلوى، لا يبدي سوى أدنى حراك. يا إلهي!.. أتمنى ألا أكون ألحقت به أضرارا وإصابات جسيمة. يا رب لطفك وسترك.. يا

رب لطفك وسترك.

***

(6)

ألم فاض بي..

وما عدت أرى نفسي..

فقدت إدراكي بذاتي..

حتى أصبحت مجردا من الشعور بالطمأنينة والأمان.

(ضاحي مال الله)

(أتعلمين يا عزيزتي ما هو أشد عناء من الإحساس بموضع الألم؟.. إنه الجهل بالأسباب)

لا أتذكر أين سمعت أو قرأت هذه العبارة المتسمة بالعمق والمحاكية للحقيقة، لقد طافت بخاطري ولامست أوجاعي المتلاحقة بعدما سقطت منهارة تحت رحمة أحداث وظواهر غريبة مفاجئة، أجهل أسبابها ولا أجد لها أي تفسير منطقي أبدا.

فما عشته من كابوس حقيقي وتبعاته الخطيرة في مجمع سيتي سنتر ذلك اليوم لم يكن آخر الأحداث ولا أسوأها جررت إليها مسلوبة الإرادة، وليت الأمر انتهى عند هذا الحد.

فقد لاحقني بعد ذلك المزيد من الصدمات العنيفة التي سببت لي آثارا نفسية لا تُمحى بسهولة، جعلت أيامي أكثر سوادا واكتئابا من قبل، حتى حالت حياتي جحيما لا يطاق، ولا أبالغ صدقًا، لكن أرجوكم اعفوني من الإفصاح عنها.

فبعض المصائب أتحرج من إفشائها علنا، لكن في المقابل لا أحتمل كتمان بعض الخبايا من الحالات الغريبة النادرة، بل مستحيلة الحدوث والتصديق، لكنها حصلت لي من غير سابق إنذار، فصرت كإحدى شخصيات سلسلة حالات نادرة للكاتب البارع عبدالوهاب الرفاعي، غير أني لا أرجو أن أجد قصتي الكئيبة ضمن السلسلة الشهيرة، وما الفائدة التي سأجني من وراء سردها في كتاب يحقق رواجا كبيرا من غير استنتاج تفسير منطقي لما حدث ويحدث لي من غرائب دمرتني نفسيا وأفسدت حياتي، حتى أني لم أجد أي حل يخفف أزمتي هذه، لا دواء يخفف أوجاعي النفسية المتدهورة سوى الفضفضة على مسامعكم بمصائبي المباغتة التي لا أرجو أن تصيبكم منها ولو مثقال ذرة. فأولى كربي هي ما عرفتموها من خلال إفشائي لها في البداية، نعم.. لقد فقدت جميع متابعيّ بلا استثناء في برامج التواصل الاجتماعي من الانستغرام والسناب شات خاصة، لا.. ليس خللا في جهازي ولا في البرنامج نفسه كما تصورت أول الأمر، ليس هذا فحسب، بل تلقيت بين فترة وأخرى العديد

من الرسائل التهديدية الغاضبة، مليئة بالوعيد والسباب تجاهي. طبعا قدمت شكوى بواسطة أبي لدى الجهة المعنية في قسم الجرائم الالكترونية، فتم اتخاذ الإجراءات والاحتياطات اللازمة، لكن عدد أصحاب تلك الرسائل المريبة المضمرة للسوء بلغوا المئات، فكيف سيتم التصرف معهم؟!

حالة أخرى لا تقل غرابة حدثت لي من غير أن أشعر بعد واقعة المجمع بأيام، عرفتها من همسات بعض أفراد أسرتي بشكل غير مباشر، إذ لليال متتالية قبل فترة قريبة مضت، كنت أصحو من فراشي بعد منتصف الليل، أتوجه إلى مكتبتي لأنتقي كتابا عشوائيا من أحد رفوفها، بعد ذلك أغادر غرفتي لأجلس في الصالة، وعلى ضوء مصباح يدوي خاص بأبي، وأحيانا أعتمد على مصباح هاتفي أعكف بلا شعور مني على قراءة فقرة عشوائية بصوت جهوري مسموع، مما أتسبب بإيقاظ والديّ وسواهما من بعض أفراد أسرتي أحيانا، هذا عدا سماع صوت نحيبي المرتفع، أو ضحكاتي الهادرة من غير سبب.

رغم اعتراض والدي وعدم إيمانه بمثل هذه المعتقدات، حسبتني أمي مصابة بنوع من المس الذي لا ينفع معه كعلاج سوى الرقية وإحضار شيخ مختص لإبطال مثل هذه الأعمال الضارة. لكن هل تصدقون الظن؟ يبدو أنها لم تخطئ في

مزاعمها التي أخالفها بدوري أيضا. فقد شفيت فعلا من داء المس –إن كنت فعلا مصابة به– لمجرد أن سلمت نفسي طواعية لترقية الشيخ الروحاني أفريقي الجنسية، ولا أعلم كيف تم جلبه؟! ولم أحضروه هو بالذات من بين الشيوخ المختصين عندنا؟ ليس لي دراية ولا يهمني بصراحة، حسبي أنني لم أعد أزعج أسرتي بمعاودة تلك النوبات والتصرفات الغريبة مجددا في الليل.

لكن يا لخيبتي وخيبتهم، فبعد أيام معدودة داهمتني حالات أخرى لا تقل غرابة، لم يكن لي يد فيها صدقوني، واعفوني هذه المرة أرجوكم من الإفصاح عنها، منعا لإثارة المزيد من الفضول والشكوك، وحفاظا على سمعة وخصوصية أسرتي الصابرة.

أما بشأن الحادثة التي تسببت بها عن غير قصد بعد فراري من المجمع و.. من ملاحقة نظرات الناس لي، فأحمد ربي أن قدر للعامل الآسيوي النجاة، إذ لم يتعرض سوى لرضوض بسيطة، رغم ذلك لم أسلم من تحقيقات مركز الشرطة، واتخاذ الاجراءات اللازمة من التوقيع على التقارير وغيرها بشأن الحادثة.

تسألونني كما أسأل نفسي بمرارة متى ستنتهي مصائبي المتوالية التي باغتتني هكذا عشوائيا من غير أن تسبقها

خطوات تمهيدية؟ لكن لكل تجاوز أو فعل حد كما هو في الواقع، إما أن ينتهي بخلاص سار أو مأساوي، حتى نصل إلى لحظة الانفجار.

فآخر حادثة تعرضت لها أو بصراحة أنا من تسببت بها وألحقت فيها الأذى بأسرتي، أعتبرها بمثابة القاصمة والتي أودت بي إلى.. حسنا ستعرفون لاحقا.

إذ ذات مساء صيفي من أواخر شهر أغسطس، اجتمع بي أفراد أسرتي في صالة المعيشة لاحتواء أزمتي النفسية مع وضع حد لمشاكلي المتراكمة التي تورطوا فيها أيضا من غير قصد. كنت جالسة على كنبة عريضة محاطة بهم، بجواري الأيمن تجلس أختي الكبرى (هنادي)، وفي ناحيتها الجانبية كنبة يشغلها أمي وأبي، أما شقيقتي الصغرى (أميرة) التي انشغلت بهاتفها من بداية الجلسة، فقد أخذت مكانها المعتاد في الناحية المقابلة لتجاورني.

سأتجاوز المقدمات وأصارحكم أني كنت أخفي وجهي بين راحتي يديّ وأنشج باكية في حرقة، بينما ظلت (هنادي) تمسح على ظهري برفق تحاول تهدئتي، خاطبتني مكررة سؤالها بصيغة أخرى:

- لا بدَّ أن تصارحينا وتخبرينا ما الذي ورطت نفسك فيه من البداية.. هل وقعت في مشكلة مع أحد؟

لم أستطع أن أجيبها بشيء سوى أني واصلت البكاء بمرارة، تنهدت أختي بضيق ثم تحولت عني لتنظر تجاه والديَّ ترجو معونتهما.

خاطبتني أمي بشيء من الرجاء:

- لماذا لا تتجاوبين معنا.. نحن هنا من أجلك، تعلمين أننا نبذل قصارى جهدنا لمساعدتك يا دنيا.

هنا رفع أبي عينيه عن الصحيفة التي كان يطالعها، علَّق وهو ينظر إليَّ من فوق نظارته:

- يكفي هذا، هونوا عليها قليلا.. لا نريد أن نسبب لها المزيد من الضغوط، ألا ترون حالتها تزداد سوءا.

قبل أن يتكلم أحد، رفعت رأسي لأظهر لهم وجها شاحبا غارقا في الدموع. أفصحت بصوت متقطع:

- لا أعرف.. صدقوني.. لا أخفي عنكم سرا.. لم أتسبب، ولم أقترف أي فعل خاطئ.. أنتم تعرفونني، فلا ترتابوا فيَّ أرجوكم.

مدَّت إلي أختي علبة مناديل، سحبت منديلا ورحت أمسح به وجهي ودموعي الغزيرة. بينما يصغي إلي الجميع واصلت الفضفضة عن مشاعري المكروبة، وقد خفَّ بكائي قليلاً:

- علاقتي طيبة مع كل من أعرفهم.. الكل يشهد بأخلاقي وحسن تعاملي، لكن لا أستبعد تعرضي للحسد من قبل بعض النفوس المريضة الحاقدة، ليس لسبب سوى أنني إنسانة مثالية وناجحة، وهذا ما يغيظهم.

ضحكت شقيقتي (أميرة) بصوت مكبوت وهي تعبث في مفاتيح لوحة هاتفها، لا أعلم هل بسبب ما قلت أم من شيء آخر لا علاقة له بي، إلا أن تصرفها أثار استفزازي.

التفت إليها وخاطبتها بنبرة منفعلة:

- على ماذا تضحكين؟!.. لا يوجد سبب يدعو للسخرية على ما أظن.

ردَّت بفم باسم من غير أن ترفع عينيها عن الهاتف:

- ليس عليك.. أضحك على تعليق إحدى صديقاتي في القروب.

فجأة.. ولا أعلم لماذا، تملكتني حالة من الغضب الداخلي، فشعرت بالكره تجاه الجميع، لم أنتبه أو لم أصغ لوالدتي وهي تخاطبني، وإنما أخذت أتطلع تجاه (أميرة) بصمت وعداء.

بنبرة آمرة خاطبتها بحدة:

- اتركي الهاتف من يدك.

تجاهلتني وكأنها لا تسمعني، واصلت دردشتها الكتابية بنقرات مسرعة، مما أثار الموقف استفزازي أكثر، أشعر بأعصابي الداخلية يتصاعد غليانها بدرجة محمومة من غير إرادة مني.

- قلت لك اتركي الهاتف يا حمارة.

شهقت (هنادي) قبل أن تغطي فمها تعبيرا عن الصدمة، فيما لامتني أمي مستنكرة، ونهرني أبي بدوره، لكني لم أعِر لهم بالاً، إذ وجهت كامل تركيزي تجاه (أميرة) اللامبالية حيث ردَّت علي بانزعاج:

- إنني أدردش مع صديقاتي في القروب.. (ما تشوفين؟).

لم أتمهل لحظة حتى انفجرت صارخة:

- قلت لك دعي الهاتف دعي الهاتف، وإلا حطمته فوق رأسك.

- أعصابك.. أعصابك.

- هدئي من روعك.

- لم كل هذا الصراخ.. صوتك سيصل إلى الجيران.

وفي ذروة هذا الموقف العصيب لم أتمالك نفسي، ولم أعِ أصواتهم المنبهة المستنكرة والتي تداخلت مع بعضها البعض في آن واحد، فقد قمت من مكاني لأندفع تجاه (أميرة) مباشرة وأنزع منها الهاتف بقسوة.

- هي.. مهلا..

تفاجأت من تصرفي، واحتجت على ردة فعلي المبالغة قبل أن تنهض بدورها لتحاول استعادة هاتفها مني بقوة، فيما أنا أمنعها بإصرار وعناد، حتى سقط الجهاز المحمول من يدي لما اشتبكنا في شجار عنيف بعيد عن التعقل والرقة، ومعه ارتفعت أصواتنا الهائجة بالصراخ والسباب المبتذل، تداخلت مع أصوات البقية الناهية تنم عن استنكار شديد.

سارعت (هنادي) لتفصل بيننا وتفك الشجار بمحاولة مجهدة، إلا أننا تمادينا في سلوكنا الأرعن، هي تخدش وجهي بأظفارها الطويلة وأنا أشد شعرها المجعد بقوة.

- توقفا.. اتركي شعرها.. اتركيه يا دنيا.

- إن لم تتوقفا، ستعاقبان كلاكما.

يصيح فينا أبي غاضبا ومنذرًا، كادت (هنادي) أن تفصل بيننا، إلا أن ما بدر مني الآن من جرم أصاب الجميع بالهلع لحظة، حتى أني أجزم أن قلوبهم قد توقفت لثانية أو كادت،

فما إن تمكنت (هنادي) من التفريق بيننا أو -لأوضح أكثر- إبعادي قليلا عن (أميرة) التي ارتخت يديها عن ضربي، وقعت عيني على تلك الأداة الحادة الموضوعة على المنضدة بالقرب من سلة الفواكه، وبلا تردد ومن غير أن أحكم عقلي المشتت مددت يدي لألتقط السكين بحركة خاطفة، ثم.. بكل ما أوتيت من استطاعة وقوة لا إرادية ولا حيلة لي فيها، هاجمت (أميرة) التي لم تتوقع وحشيتي العمياء تلك البعيدة كل البعد عن سجيتي الراقية، سرعان ما رحت أوجه طعنات عشوائية إلى أي موضع أصل إليه من جسدها.

لم أشعر طبعا بصرخاتها المفزعة الطاغية بالصدمة والألم، ولا بحالة الفوضى والهياج والصيحات المختلطة التي سادت هذا الموقف المريع. كنت عمياء.. عمياء من أدنى بصيرة، فاضت رؤيتي بشر السواد، ضغينة ملعونة استحوذت على كياني وسائر جوارحي.

لم يوقفني عن حدي ولم يردعني أمر سوى أيادي عديدة انهالت فوقي وقبضت عليَّ بسرعة، ثم أحكمت السيطرة علي وعلى تصرفاتي الهمجية بجهد مستنفد، حتى لقيت أبي يثبتني على أريكة بعيدة، وقد قررت الاستسلام أخيرا.

أرى أمي منحنية على (أميرة) تنهار باكية، في حين تحاول أختي جاهدة تهدئة وإسعاف (أميرة) المضطجعة على

الأرض، تنزف الدماء من مواضع جروحها، وقد أخذت تتلوى وتنتفض وما زالت تولول باكية مرتاعة. دخل علينا شقيقنا في الإعدادية آخر العنقود (حمود) آتيا من خارج البيت بلباس رياضي مترب، ارتسم العجب والصدمة على ملامح وجهه المراهق وهو ينظر إلى تداعيات الفوضى والجناية التي سببتها الليلة، أما أكثر ما شد انتباهه أنني ظللت أضحك وأضحك بجنون هستيري لا مبرر له.

***

(7)

اعتزلت الحديث، فلا أحد يسمعني..

التزمت الصمت، فاحتواني..

تريد أن تعرف ما الذي جرى؟

انظر لعيني.. ترى ما حلَّ بي.

(عائشة الزعابي)

frfosha_books

يوم.. يومان.. ثلاثة أيام، بل أربعة.. أسبوع على أقل تقدير.. ماذا؟!.. شهرا!.. لا أعتقد.

لا أعلم كم قضيت من مدة في هذا السجن المزعوم الذي يسمونه رسميا بالمصحة النفسية، أما المسمى السوقي الشائع عادة بين عامة الناس هو (مستشفى المجانين).

لا أعلم ولا أذكر كيف تم إيداعي في هذا المكان المنفر الذي يتحاشاه كل من يتمتع بصحة عقلية ونفسية سليمة باعتقادي.

استلزم مني الكثير من الوقت حتى عدت إلى رشدي واستوعبت حقيقة مكان إقامتي الجديد، أجهل إلى متى

سأظل نزيلة فيه، قابعة في إحدى غرفه المعزولة.

رغم أن الغرفة التي خصصوها لي جيدة ومريحة، إلا أنهم عمدوا تحت حراسة مشددة لإبقائي معزولة عن بقية المرضى والنزلاء، بل عن العالم بأسره كما أشعر، تحسبا لقيامي بأي تهديدات خطرة خارجة عن إرادتي تمس سلامة الموجودين، وليس هذا بإجراء مستغرب طالما أنهم يحسبونني مختلة عقليا، أو أعاني من اضطرابات نفسية أو أية علة ذات صلة، إلى درجة أنها أودت بي لمحاولة ارتكاب جناية بحق شقيقتي الصغرى.

لكن بعد مضي فترة لا بأس بها أقدرها بأكثر من أسبوع، تم منحي بعض الحرية لا تتجاوز مجرد استنشاق الهواء النقي في الخارج، مع التصرف بحرية الحركة ضمن نطاق محدود يشمل الممرات والدهاليز القريبة، إلى جانب التنزه في الهواء الطلق عبر الساحة الخارجية المسورة، حيث تحوي رقعة حشائش مزروعة وحديقة مصغرة متواضعة قد تضفي بعض البهجة.

أجلس على إحدى الأرائك الخشبية المنتشرة في الساحة، لا يشغلني شيء سوى المراقبة والتأمل شاردة الذهن في مناظر عشوائية. أربعة أو خمسة من النزلاء يظهرون أمامي هنا، كل انشغل بشأنه الخاص. بعد فترة قصيرة اقترب

مني شخص ومعه مرافق آتيا من البوابة خلفي، لم يكن سوى الدكتور (صابر) المشرف على حالتي في المصحة، أما الشخص المرافق لم يبدُ غريبا لي، كأني رأيته من قبل، لا أعلم أين بالتحديد.

بوجه بشوش حياني الدكتور (صابر):

- مرحبا دنيا، كيف حالك اليوم؟.. أراك رائقة المزاج في هذا الجو اللطيف.

أجبته ببرود مختصر من غير أن أنظر إليه أو إلى الشخص الآخر:

- بخير.

قال لي بعد ذلك:

- إداريو المصحة يقولون أنك قدمت بالأمس محاضرة قصيرة شيقة للنزلاء حول القراءة، للأسف كنت خارج نوبتي وقتها، وإلا لما فوتُّ على نفسي كسب بعض الفوائد.

- شكرًا على إطرائك، بإمكاني إعادتها إن طلبوا مني بشكل رسمي.

تبادل مع رفيقه نظرة لا تخلو من حيرة ثم قال بعد تأهب:

- حسنا يا دنيا.. أود أن أعرفك على صديقي الكاتب الذي

أخبرتك عنه من قبل، لقد قرأت بعض أعماله، أليس كذلك؟

التفتُّ من غير مبالاة إلى الشخص المعني الذي ابتسم في وجهي بلطف وهو يومئ إليَّ بتحية ودية.

- ذكرني.. ما غرض هذا اللقاء؟

فاجأت الدكتور (صابر) بسؤالي، إلا أنه أجاب بكياسة:

- بحسب ما اتفقنا، طلب الكاتب مقابلتك شخصيا لسماع قصتك الغريبة وما مررت به من أحداث كي يضمها لسلسلة مؤلفاته من الحالات الغريبة أو المستحيلة أو أي شيء من هذا القبيل.

قبل أن أعلق تكلم الكاتب موجها خطابه لي:

- نعتذر أختي دنيا إن سببنا لك أي إحراج، لا ننوي أبدا أن نلح عليك ونلزمك على الإفصاح عن أمورك الشخصية، إن لم يكن الوقت مناسبا أو لم ترغبي بالتحدث أصلا، فلا بأس.. هذا قرارك نحترمه بالطبع.

- لست رافضة أبدا.

عبَّرت بهدوء وعيناي منخفضتان للنظر إلى الأسفل، ثم أردفت:

- لكن بشرط.

- شرط!

أبدى الدكتور (صابر) استغرابه، أشار له الكاتب بأن يدعني أكمل.

قلت:

- أن تذكر اسمي الثلاثي كاملا كصاحبة القصة بلا رموز مختصرة، كما عليك أن تسرد قصتي بأي أسلوب مناسب تراه، لكن من غير تغيير أو أن تنقص منها شيئا.. هذا كل ما أطلبه فقط.

***

على مدار جلستين متتابعتين وفي غضون يومين فقط، انفردنا ببعضنا في غرفتي الخاصة، لأسرد للكاتب تفاصيل حياتي العامة والأحداث الغريبة المفاجئة التي وقعت لي، ولم أجد لها أي تفسير أبدا، فيما لم يكف الكاتب بين تارة وأخرى عن تدوين ما بدا أشبه برؤوس أقلام في مفكرته الخاصة.

الكثير من التفاصيل لم أتردد في البوح بها، متضمنة حتى أسراري الخاصة وأسرار عائلتي أيضا. تسألونني لماذا؟! وهل أملك ما أخسره بعد أن تخلى عني الجميع كما أشعر، بغض

النظر عن زيارة أسرتي لي أحيانا للاطمئنان فقط، أو لأداء الواجب تحت طائلة المسؤولية لا أكثر.

ولما اكتفيت من السرد بعدما وصلت حد النهاية، راقبت ردة فعل الكاتب الذي بدأ بنقر القلم على الطاولة عدة مرات تعبيرا عن الشك أو الحيرة، ثم عقَّب باستغراب:

- ربما أبالغ قليلا لو قلت بأن قصتك من أغرب القصص التي مرَّت علي، فهي لا تشبه أبدا قصص المراهقات الغريبة التي كتبتها من قبل ضمن السلسلة المعروفة.

أثار ما قاله اهتمامي وانتباهي أكثر، سألته:

- من أي ناحية تراها مختلفة؟ هلا توضح لي..

أجاب بعد إطراقة صمت:

- جميع الحالات الغريبة التي كتبت عنها يربطها خيط ما يقود إلى تفسير منطقي، أما حالتك..

سكت لحظة ليفكر قليلا ثم أكمل:

- لا يوجد خيط واضح يفسر الأحداث الغريبة المؤسفة التي حصلت لك من غير سبب.. وكأنك وقعت ضحية انتقام من نوع آخر خارج عن المألوف. وكما حذرتك صديقاتك قبل فترة حسب ما ذكرت في سياق قصتك، أتصور أنك قد

تقمصت من غير أن تشعري دور شخصية خيالية داخل رواية سوداوية، بواسطتها يتحكم بك كاتب مجهول كيفما يشاء، مستخدما دفترا سحريا خطيرا بالغ الشناعة.. لا أود ذكر اسمه صراحة، فعلا أرجوك لا أود ذكر اسمه أبدا.

***

الخاتمة

تمتم ببضع كلمات خفية أجهل معناها ومغزاها تماما، ثم استدار نحوي. ضاغطا على كلماته الأخيرة ليخاطبني بنبرة صوت وجلة قبل أن يناولني الغرض بيد مرتعشة:

- أكرر القول ولا حسبي.. استخدمه بحذر.

استلمت منه الغرض وكلي حذر وترقب، لم يكن حمله خفيفا على يدي مثل أي دفتر عادي كما شعرت، فحجمه أكبر من حجم الكتاب العادي بضعفين تقريبا، وسماكته تعادل مقياس أي مجلد ضخم، غلافه من جلد خشن، ذي لون بني غامق، بان مهترئًا نتيجة معاصرته دهورًا طويلة كما أتخيل، أتحسس ملمسه المغبر الجاف. وقبل أن أغادر شقة الشيخ الروحاني (فضيل دولا) استغرقت هنيهة لأعاين العنوان المطبوع بخط باهت على الغلاف الأمامي، إذ اقتصر على كلمتين فقط.. هما (حكواتي الجان).

***

بحسب تجربتي المتواضعة يحتاج الكاتب الجيد على أقل تقدير ثلاث ساعات متواصلة حتى ينجز كتابة مشهد أو نص واحد تام.

الساعة الأولى يستهلها في تنشيط ذهنه وتصفية أفكاره،

إلى جانب منح خياله مطلق الحرية لتكوين معالم المشهد بدقة، ولا ضير من كتابة بعض العبارات الافتتاحية. أما في الساعة التالية فيباشر في صياغة النص، عبر انتقاء المفردات والعبارات المناسبة، مع ربط تراكيب الجمل السليمة لكل فقرة محددة تساهم في بناء النص وسوى ذلك.

ثم تلي أخيرا الفقرة الختامية في الساعة الثالثة، إذ ليس عليه سوى مراجعة النص وتحريره، معتمدا على تقليل الحشو قدر الإمكان مع التخلص من الزوائد، كما يلجأ إلى التعديل والتغيير إن دعت الحاجة.. وقس على ذلك.

هذا هو حالي تقريبا منذ أن عزمت كتابة روايتي الجديدة في دفتر فريد من نوعه، صفحاته من ورق البردي. ولكم أن تتساءلوا عن سره الدفين الذي لا يجدر أن يدركه أحد من عامة البشر، خاصة من ذوي النوايا الدنيئة.

فحين كشفت للشيخ الروحاني (دولا) عن مشروعي الانتقامي تجاه من كان السبب الرئيسي في نسف حلمي، فضلا عن تنغيص حياتي وزعزعتها، تبدلت ملامح وجهه من بله وهزل إلى جد بالغ، حتى شابهُ إحساس مزيج من التوتر والتردد معا. انصرف من غير أن يستأذنني إلى غرفة منفردة ولا توجد سواها في تلك الشقة المتواضعة، ثم عاد إليَّ بعد دقائق حاملا معه غرضا ما بارز الحجم. وكما ألمحت إليكم

سابقا، تماثل أمامي مجلد سميك صفحاته فارغة، يحمل اسم (حكواتي الجان).

ليس مجرد مجلد عادي كما يدعي الشيخ، فأوراقه الفارغة مشبعة بطاقة سحرية هائلة ذات تأثير رهيب لا يخلو من مخاطر بالغة لو سِيئ استخدامها. بيد أنها لا تستخدم إلا لغرض خاص جدا، ألا وهو كتابة القصص لصغار الجان، ويجدر لمصلحة الراوي ولإرضاء المستمعين أو القراء الخفيين ألا يمثل دور شخصيات تلك القصص سوى كائنات من الإنس، وإلا سيثار سخطهم لو خالفتُ قاعدتهم. وإن ذكرتُ اسم شخصية واقعية في القصص المدونة في هذا المجلد السحري المزعوم، فإنها ستصبح لا محالة جزءا وثيقا منها لا ينفصم، فأي حدث أو حادثة أكتبها محتملة الوقوع للشخصية المختارة، على الأرجح ستتعرض لها في الواقع كما يزعم ذلك الشيخ النصاب.

بالطبع لم أصدق في بادئ الأمر حرفا من هذه الخزعبلات التي تفوه بها الحاج (دولا)، ولم أقبل منه استلام المجلد المهترئ إلا على سبيل التجربة وتزجية الوقت، ولا أخفيكم سرا، فقد جذبني منظر المجلد الغريب الذي بدا أشبه بكتب المخطوطات النادرة، وإن كانت صفحاته البالية خالية تماما. ما أثار استغرابي أنه وهبني الغرض من غير مقابل، سوى أن

أبصم على الصفحة الأولى قطرات من دماء أصابعي الخمسة إلى جانب آثار من دماء سابقة، كبرهان إثبات مسؤوليتي لسرد القصص، وحفظا لحقوقي من تدويني إياها.

كان من المفترض لشخص عاقل مثلي ألا يستجيب لمثل هذا الهراء، ولا يصدقه البتة، لكن.. هل لكم أن تصدقوني؟ وإن أخجل من مصارحتكم، نعم.. لقد استجبت لهذا الأمر المستهجن، ولا أعلم سبب الدافع الغريزي الذي حملني على جرح أصابعي الخمسة بخفة، حتى أبصم بضع قطرات من الدماء على الصفحة المعنية.

لبثت لأيام لم أحاول أن أخط ولو حرفا واحدا في تلك الصفحات الفارغة التي أصابها البلى، لكن مع انغماسي المفرط المحاكي للإدمان في عالم السوشيل ميديا، وحرصي خصوصا على متابعة حساب الناقدة المدعوة (دنيا) وأحوالها، أبقى نيران غيظي على حالها مستعرة، فلم تخفت رغبتي بالانتقام، لذا عكفت أكتب مشاهد عابرة مدروسة بعض الشيء، وهي بالطبع مقترنة بالواقع، تتصدرها أساسا (دنيا) كشخصية رئيسية، ولا أداريكم صراحة، فقد أخذت مشاعري الحانقة تستكين، نتيجة إفراغ ضغائني وشحناتي الثائرة على أوراق استثنائية ليست عادية. وكأن لذة الانتقام قد خامرتني بلا ريب، ولم أتيقن كليا –لاسيما في مستهل

التجربة– إلا بعد أن رصدت انقطاعها عن الواقع الافتراضي، ثم فاق اندهاشي لما راقبت أحوال حسابها في الانستغرام يعاني شبه يومي فقدان المتابعين بنسبة ملحوظة، حتى تطابق الواقع بالخيال حينما رأيت بوضوح عدد المتابعين قد انخفض إلى أدنى درجة وهي الصفر، ومن هنا بدأت تراودني أفكار أكثر سوداوية، فلم يرتو غليلي بعد. رسمت خطة محكمة وممنهجة لكتابة مشاهد مخيفة ومؤلمة ذات تسلسل منطقي، خصصتها لتلك الناقدة (دنيا)، ليس لي منها سوى غاية واحدة.. أن أذيقها رويدا رويدا مرارة الآلام النفسية، حتى أحيل حياتها جحيما لا يطاق.

كان بإمكاني أن أسبب لها قدرا أكبر من الأذى والضرر ثم أقضي عليها تماما، إلا أني أجزم يقينا لو أنهيت القصة مبكرا لن يشبع فضول قرائي الجدد من أبناء.. تعلمون من أقصد.

معذرة.. حاولت أن أصرف انتباهكم عن أمر ذي شأن جلي، لكن اتضح أنكم تتمتعون بذهن يقظ يصعب تغافله، لكم ذلك.. سأجيب على تساؤلكم الملح بشأن المجلد القديم الذي يحمل اسم (حكواتي الجان) على قدر الاستطاعة، لكن من غير ذكر تفاصيل غير ضرورية منعا للضجر.

في الحقيقة لا أملك الكثير مما أقوله عن أسرار هذا المجلد السحري سوى قيام الحاج (دولا) باقتنائه من سوق السحرة

في إحدى البلدان الأفريقية، وكما علمت منه ليس الغرض الذي سلمني إياه هو النسخة الوحيدة، إذ توجد نسخ أخرى سواها لا يعلم أين موضعها في أصقاع الأرض قاطبة، ولا يهمه البتة، فكل ما يرجوه هو التخلص منه نهائيا، ولا يذكرنَّ من أمره شيئا، فهو قد نوى التوبة والتفرغ لأعمال الخير حسب مزاعمه، لذا حذاري كل الحذر أن يقع هذا الغرض المحظور في الأيدي الخاطئة، وإلا قد ينال الويل والعواقب من عاثري الحظ والضحايا الأبرياء وسواهم، لما تحويه صفحاته الخاصة من طاقة سحرية فذة، تطلق من خلال الفقرات التوجيهية القابلة للتنفيذ إشارات آمرة لأفواج من الجن، فعليهم تنفيذها حرفيا وفق ما هو مكتوب، لذا كل الأحداث التي وقعت كما أتعشم، افتعلها أولئك بوسائل أجهلها تماما، هذا كل ما بوسعي الحديث عنه ولا أملك في جعبتي المزيد.

أما الآن وأنا قابع في غرفتي المعزولة، تنيرها إضاءة شاحبة من شمعة تحتضر، أتطلع بعين مجهدة إلى ساعة المنبه المستقرة على الكومود، لقد تجاوزت الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، كما شارفت شمعتي المنتصبة جوار علبة الأقلام على الذوبان، آنت اللحظة الاستثنائية المحببة لي، سأطوي مسودة روايتي الجديدة المدونة في دفتر محظور، عند مشهد إيداع الشخصية الرئيسية

(دنيا) في المصحة النفسية توقفت، ما فتئت في حيرة من أمري، فلم أقرر بعد، هل سأنهي الرواية عند هذا الحد، تاركا الأحداث التالية تجري كيفما هو مقدر، أو يجدر أن أكتب جزءا لاحقا بقصة جديدة مستقلة ذات حبكة مختلفة، أو قصة متممة للأحداث، كما تفسر أيضا الأحداث السابقة.

وإن كنت لا أحبذ كتابة قصص متسلسلة الأجزاء، فهي تتلاعب بأعصاب القارئ وتجعله على حافة الانتظار، إلا أن مرجع هذا القرار يعود إلى قرائي الجدد من أبناء.. تعلمون من أقصد بالطبع، أليس كذلك؟

درويش عبدالغفار

شكر وتقدير

مشاركة القارئ في وضع بصمته الخاصة لإصداري السادس، قد تبدو فكرة غير مسبوقة إن صح ظني، فلم أنفذها إلا بعد دراسة جادة وتخطيط سليم، كما أنها لم تخطر في ذهني تلقائيا إلا لهدف ذي مغزى مرتبط بمضمون الرواية لا يتسع المجال لشرحه، ولا أخفيكم أني قبل الشروع في كتابة المسودة الأولى ترددت وتوجست من التواصل مع القراء المختارين من بين الأسماء العديدة المطروحة من قبلي. فلم يكن الاختيار سهلا، عدا أني وضعت في الحسبان احتمالية امتناع بعض القراء المعنيين من المشاركة في ملء مساحتهم المخصصة المحدودة للرواية.

لكن جاءتني ردودهم الإيجابية مخالفة لتصوري، مما أسعدني وحفزني للعمل بجد أكثر، كما دفعني حماسهم وتفاعلهم الواضح إلى مباشرة تنفيذ الفكرة من غير تقصير، فلا يسعني في الختام بعد إنجاز المطلوب سوى أن أتوجه بجزيل الشكر والامتنان إلى المشاركين من الكتّاب والقراء الذين أتحفوني بعباراتهم المميزة والملائمة لمشاهد الرواية، كما يطيب لي ذكر أسمائهم اللامعة كرد جميل وعرفان نظير مشاركتهم القيمة التي أضافت للعمل ميزة استثنائية تستحق الإشادة.

الكتّاب:

زايد المرزوقي، نوف عبدالله، مريم إبراهيم، لطيفة الغيثي، حنان الخطابي.

القراء:

سمر محمود، أمجد آل قريش، حور أحمد، زهراء الجبيلي، ليان محمد، ضاحي مال الله، عائشة الزعابي.

كما أود أن أوجه خالص شكري وامتناني إلى الكُتاب القديرين سعود السنعوسي، علياء الكاظمي، عبدالوهاب الرفاعي، على منحي الإذن بذكر أسمائهم الغنية عن التعريف في سياق العمل.

تنويه

بعض أسماء الشخصيات الواردة في الرواية

من نسج خيال الكاتب،

فأي تشابه مع الأسماء في الواقع فهو من قبيل الصدفة،

مع خالص اعتذاري.

من إصدارات المؤلف :

فتاة المنام (رواية)/ 2010م

إصدار: مركز الشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة للثقافة والبحوث (البحرين).

غريب يسكن معي (رواية)

الطبعة الأولى 2015م / الطبعة الثانيـة 2016م / الطبعة الثالثــة 2017م/ الطبعة الرابعة 2017م / الطبعة الخامسة 2018م / الطبعة السادسة 2019م/ الطبعة السابعة 2020م.

إصدار: دار نوفا بلس للنشر والتوزيع (الكويت).

راوي السعادة وصانع الأحزان (رواية)/ 2016م

إصدار: دار سما للنشر والتوزيع (مصر).

عزيز دوست (رواية)

الطبعة الأولى 2017م / الطبعة الثانية 2018م.

إصدار: دار نوفا بلس للنشر والتوزيع (الكويت).

ليل الإغراب (رواية)

الطبعة الأولى 2019م / الطبعة الثانية 2020م.

إصدار: دار نوفا بلس للنشر والتوزيع (الكويت).

للتواصل مع الكاتب :

انستغرام :

mohammed_alwaadh

تويتر:

@ooalwaadh

البريد الإلكتروني:

M_alwaadh@hotmail.com

M_alwaadh@yahoo.com

---

(1) تقصد بالطبع كل من شخصيتي (أدهم صبري) بطل سلسلة (رجل المستحيل) للكاتب المرحوم (نبيل فاروق) و(رفعت إسماعيل) بطل سلسلة (ما وراء الطبيعة) للكاتب المرحوم الآخر (أحمد خالد توفيق)، وهي من أشهر مؤلفات الكاتبين المصريين، ونظرًا لتعلق الكاتب (درويش) بهاتين السلسلتين، قرر اختيار اسم (أدهم رفعت) كهوية أدبية له في مؤلفاته المنشورة، عوضًا عن اسمه الحقيقي.

(2) روائية بريطانية، صاحبة السلسلة الشهيرة (هاري بوتر)، اسمها الأصلي جوان كاثلين رولنج. بطلب من ناشري كتابها قامت باستخدام الحرفين الأولين من اسمها لتقتصر على (ج. ك. رولينج) كمؤلفة للسلسلة،

لاعتقادهم عدم إقبال القراء الصغار على قراءة كتاب ألفته امرأة.

(3) واقعة انتشر خبرها فعلا في بعض مواقع التواصل الاجتماعي آنذاك.

(4) العلامة الأديب عمرو بن بحر الجاحظ، قيل في سبب وفاته رحمه الله، كان بسقوط مجلدات العلم عليه سنة 255هـ.